

نقطة صغيرة قرب السماء

قصص قصيرة

بقلم: عز الدين نجيب

عن ميلاد هذه المجموعة

بقلم المؤلف

ما عدا قصة واحدة، فقد استغرقت كتابة قصص هذه المجموعة شهراً من الزمن خلال صيف 2015، أما تشكّلها في رحم الكتابة بداخلي، فقد استغرق سبعة وعشرين عاماً تقريباً، و هي الفراق الزمني بين آخر قصة كتبتها عام 1988 - وهي أيقونات جبلية، التي استهل بها هذا الكتاب - وبين القصص الجديدة.

والسؤال البديهي للقارئ هو: لماذا استغرقت القصص الثلاثة عشر هذا العمر المديد في رحم الإبداع، بالرغم من أن تجربتي السابقة في كتابة القصة القصيرة كانت أطوع لي وأسبق إبداعياً من الفن والنقد، حتى صدرت لي ثلاث مجموعات مستقلة في الستينيات والسبعينيات، تم استقبالها بشكل طيب من النقاد؟..

السبب ببساطة هو أن الفن التشكيلي - بجانبه الإبداعي والنقدي - لم يسمح بمساحة يحتلها منافس قوى له، بل استأثر بكل وقتي للممارسة والتجريب، وكان مشروعى التشكيلي يجد الطريق أمامه مفتوحاً وواعداً أكثر من القصة، بالرغم من أن صعودى في مدارج الرسم والنقد قد تم وسط منافسة قوية بين مواهب وقامات، في الوقت الذي كان المناخ الأدبي يعانى من مشكلات معقدة في النشر ومن غياب حركة نقدية تقررز ما يقدم من أعمال أدبية وتعطى لكل ذى حق حقه، ودفعتُ أنا ثمن ذلك باستسهال النقاد النظر إلى كفنان تشكيلي انسحب من ميدان الأدب!

هكذا بقيتُ أجنّة القصص القصيرة كامنة، لا تولد ولا تموت، عبر السنين، بل تزداد عدداً ونضجاً، بدون عجلة منى لخروجها إلى النور، وربما تخصّبتُ من خبرتى التشكيلية وتجاربى الحياتية المرتبطة بهذا المجال، فكانت ولادتها أخيراً نوعاً من التواصل والاستمرارية مع هذا الوسيط الإبداعي.

ولم يكن اختياري لقصة "أيقونات جبلية" لتكون في مستهل هذه المجموعة.. راجعاً إلى سبقها زمنياً لبقية شقيقاتها فحسب، بل الأهم من ذلك - بالنسبة لي - هو

أنها مفتاح الرؤية الإبداعية للمجموعة ككل، لأنها تخلق لنفسها، من وجهة نظري، مجالاً كونياً في الزمان والمكان والطبيعة الإنسانية، متراوحة بين الواقع واللا واقع، بين المعلوم والمجهول، بين المحدد والمطلق، بعيداً عن اقتفاء أثر أى اتجاه أو مدرسة في كتابة القصة، حيث تركت لتيار الوعي وتداعيات المكان وخصوصية التجربة أن تسوق القصة نحو نهاية لم أكن أتنبأ بها قبل بدء الكتابة، وعلى نفس الطريق سارت بقية القصص بدون قصد أو افتعال، فبدت جزءاً في كيان عضوي، وإن فصلت بينها وبين القصص التالية كل تلك السنين.

وهذه - على أية حال - رؤية لا أدعى انطباقها ميكانيكياً على جميع قصص المجموعة، بل ليس من حقي أصلاً أن أصدر أحكاماً نقدية على عملي، كل ما هنالك مجرد اقتراح يدعمه عمر من المعاشة الحميمة لتجارب إنسانية، تحولت إلى وجه آخر بداخلي للعملية الإبداعية. وقد يكون الإرضاء الأهم لي هو قبول القراء ومحبي القصة القصيرة لهذه التجربة، وهو ما أتمناه، أما النقد فأتريه لأصحابه الأكثر دراية مني به.

أيقونات جبلية

أيقونة الراعى:

ما كنت أدري - وأنا أصعد الجبل لاهثا، عبر مدقات ضيقة تتلوى على حواف الصخور الزلقة، متتبعا نباح الكلب، متعلقا، فى مشقة، بنتوءات حجرية تعصمنى من التزلق والسقوط إلى الوادى السحيق - أين ومتى أتوقف، ولم أسأل نفسى أيضاً هذا السؤال، فثمة اطمئنان يشملى، بأننى أمضى فى الطريق الصحيح إلى لقاء حُدد لى، وكان الكلب يقودنى إليه وينتظرنى بين حين وآخر، مشرباً فوق صخرة عالية، محققاً نحوى حتى أدركه. أما التعب، فلدهشتى: لم يكن له بجسمى أثر، بل كنت أشعر بحيويتى تتجدد كلما صعدت.

تراجعت الكتل الصخرية أخيراً، مُفسحة الأفق أمامى لسماء وريدية، تتبلج منها شمس برتقالية صغيرة، فوق بساط ممتد من الأعشاب الذهبية التى تتوهج شواشيها فى ضوء الشمس، وشريط بنفسجى غامض لجبل بعيد. تنفست بعمق هواء نقيا معطراً برائحة الأرض المعشوشبة المبللة بالندى. بحثت عن الكلب فلم أجده. سمعت صليلاً نحاسياً يتردد خافتاً ويعلو ببطء، ترقبت مصدره، فرأيت فى المدى البعيد قطيعاً من الأغنام البيضاء المرقطة بنقط سوداء، يسرى فى غموض فوق خضرة مُصفرّة متماوجة، ورأيت كلبى يتقافز حولها جذلاً ويعيد شواردها إلى نهر القطيع.

ظهر الراعى بقبعته العريضة وعصاه وكلبه الصغير، عندما اقترب منى سبقه الكلب إلى فى حفاوة وراح يتشممنى ويهز ذيله، وسرعان ما لحق به كلبى وأخذا يلعبان فى ألفة. صافحنى الراعى بيد قوية خشنة. لم أستطع تحديد عمره، فبرغم امتلاء صفحة وجهه بالتجاعيد إلا أن الدماء تتدفق فيها مثل شاب يافع.

جلسنا مستندين إلى صخرة ملساء، نظرت إليه مترقباً أن يخبرنى بما دُعيتُ إليه، تلفت حوله بحذر ثم دس يده فى صدره وأخرج صرة من قماش قديم، فك عقدتها على الأرض بين أقدامنا... كانت هناك مجموعة من العملات المعدنية الصدئة، رحلت أتأمل

صور القياصرة المضروبة عليها. سألته: "كلها رومانية؟" ثم تذكرت أنه لا يعرف غير لغته المقدونية التي لا أعرف منها غير كلمات معدودة، فوجئت به يلتقط من بين العملات المتأكلة قطعة مخرومة ويقدمها إلي. تفحصتها فوجدت عليها كتابة بالعربية، حين دقت النظر أكثر استطعت أن أقرأ "ضرب في مصر" وكان هناك اسم سلطان لم أتبين حروفه، ولقد دق قلبي فرحا بهدية الراعي، فقبضت عليها بين راحتي بقوة حتى بللها العرق، وكانت التجاعيد تتكاثر في وجه الراعي راسمة ابتسامة عريضة راضية...

أيقونة مارتينا:

وقفت مستندا إلى الحاجز الخشبي الممتد، أستنشق الهواء الطازج بصباح لم يسبقني إليه أحد، وأطل على الامتداد اللانهائي المضرب لبيوت ذات أسقف فخارية حمراء على شكل أهرامات صغيرة، ومن ورائها خلفية رمادية لجبل أضجّ مضجعه الصخب الضوئي لنهار جديد، تطوف بخيالي شذرات ملونة من حلم البارحة، أو لعله كان حلم الصباح الباكر، سكراناً أنا به ما زلت، ليس تماما به، بل بمجرد أنني عدت أحلم، لا أذكر كم من السنوات مرت دون أن أحلم، أو بالأحرى دون أن أتذكر حلما، كانت هناك حقا شظايا مهشمة على فترات متباعدة لأحلام أقرب إلى الكوابيس، الآن أصبح بمقدوري أن أرى كل شئ بوضوح وبألوان قوية أيضاً، بعد أيام وليال معدودة عشتها بمستعمرة الفنانين فوق جبل ماركو بمقدونيا.

في الليل الطويل الذي يبدأ بعد الغروب، الليل الذي لا يقطعه غير نداء رتيب أسيان لطائر الشكشوك، بعد نهار طويل آخر في الرسم والتجوال بين الوديان الخضراء والجبال السمراء المبرقشة ذات عروق المرمر والصخور الوحشية - في هذا الليل لا يبقى ثمة حاجز أمام سيل الذكريات، وإذا توقف انسيالها كنت أستدعيها وكانت تطيع، أتلذذ بمشاهد من طفولتي بالقرية، وأتحمس وجوها طمستها السنين، وأصحو على عتاب أبي الميت منذ زمن طويل، وتباغتني ابنتي ياسمين التي سافرت منذ سنين، بإلقاء نفسها في أحضان فرحة بي، كما كانت تفعل في طفولتها البعيدة.

بجوار الحاجز الخشبي رأيت الآنية الفخارية الواسعة المليئة بالطمى الأسود، وقد بزغت فيها براعم خضراء جديدة، تحسست الوريقات الوليدة الغضة بأناملى، تذكرت أن فاسكو - مدير المستعمرة - قد زرعها منذ ثلاثة أيام فقط، وعندما سألته عنها نظر إلى من خلف زجاج نظارته السميك، وحرك يده فى الفضاء محاولاً أن يقول شيئاً بالإنجليزية التى لا يتقنها، ثم انصرف يائساً من العثور على الكلمات مشوحاً بيده.

الآن أشعر بعيون مارتينا، إننى فى مجالها المغناطيسى، لم أرها أو أسمعها ولم ألتفت خلفى لأتأكد، لكننى واثق بحاسة عميقة بداخلى أنها تقف هناك، فى نافذة حجرتها، تتأملى منذ لحظات. قالت وظهري إليها:

- صباح الخير يا محمد.

كانت تعرف أن اسمى ليس "محمد"، لكنها اختارت لى هذا الاسم لسهولة. التفت إليها، تفصلنى عنها الردهة الممتدة، فوق أرضيتها ألواح الخشب الناحلة، تتناثر فيها مقاعد الرهبان العتيقة المتقشفة، يوطر وجهها وذراعيها العاريتين إطار النافذة الخشبية ذات الطراز التركى، على خلفية سوداء من ظلام حجرتها. قلت:

- صباح الخير.. هل نمت جيداً؟

- نعم.. كنت أحلم ببولندا.. ورأيتك معى بالجلابية!

وكان وجهها يشع نورا غامضاً وسط ظلام النافذة، هل كان مبعثه ابتسامتها التى تجعل الوجه مستديراً كوجه طفلة؟.. أم هالة شعرها الأشقر المشعث؟.. أم عيناها الزرقاوان الصافيتان بأهدابها الطويلة؟.. من يصدق أنها فى الخامسة والثلاثين؟!

اتجهت نحوها، أوشكت أن أقول لها: "أنت فانتة هذا الصباح!" لكننى تذكرت فجأة وقع خطواتها الخفيفة بعد منتصف ليلة أمس، عائدة إلى حجرتها من جهة حجرة فاسكو وهى تهمس قائلة: تصبح على خير.

قالت: هل تأتى معى اليوم لنشتري عملات قديمة من الراعى؟

تذكرت حين صعدنا الجبل معا بالامس ساعة الغروب والتقينا بالراعى الذى
أهدانى فى اللحم عُمة السلطان، تذكرت كم كانت جميلة وحميمة إلى نفسى وهى
تسلمنى يدها الصغيرة، أساعدها على الصعود والهبوط، نتحدث بألفة عن كل شىء، إلا
عن زوجها، وتمر علينا لحظات صمت تتبادل فيها النظرات ونبتسم، فنقول خلالها أكثر
مما نقول بالكلمات، خطر لى بدهشة: إنها لم تظهر معى فى اللحم وأنا ذاهب إلى
الراعى، هل كان ذلك بسبب ما سمعته بعد منتصف الليل ؟

قالت: ألا تريد ؟

قلت: سوف نرى بعد الإفطار .

مضيت حتى نهاية الردهة، ثم هبطت الدرج الخشبى إلى الباب الخارجى وفتحته،
صدمتنى رائحة التخمر، واستقبلنى حمام دافئ من أشعة الشمس التى تلتمع فوق حواف
الصخور القريبة، لكن أكثر الأماكن لمعانا كانت مضخة المياه الحديدية العتيقة فوق
الحوض المرمرى الأشهب.

اتجهت نحو المضخة، كانت نسخة أخرى من طلمبة المياه فى منزلنا القديم
بالقرية، رحى أحرك ذراعها المقوسة على شكل "فرسة النبى" صعودا وهبوطا لتضخ
الماء دون جدوى، فقط كان هناك ذلك الصوت الترتيب المبحوح لاحتكاك الجلدة بالحديد
فى تجويف المضخة، الصوت الذى كان يذكرنى فى الماضى دائماً بصوت جدى بعد
أن فقد كل أسنانه. فجأة تذكرت أنه لا بد لى من بعض الماء أدلقه فى رأس المضخة
حتى يتدفق التيار المائى من الأعماق. ملأت وعاء بالماء من الحوض المرمرى ودلقته
داخل الرأس وعدت أضخ، وشيئا فشيئا بدأ الماء ينساب من الحلق، متألقا رقراقا فى
ضوء الشمس، وضعت يدى تحته فاستشعرت برودته العذبة، انحنيت برأسى تحت السيل
المتق وأنا أوصل عملية الضخ، يرتعش كل جسدى تحت برودة الماء، مفتوح الفم
أشهب مستسلما للذة الانتعاش الطفولى.

وكانت هناك نجوم من الماس أراها تتلألأ خلف عينى المغمضتين.

أيقونة الأجراس:

فتحت باب الحظيرة الملحقة بالفناء، فانطلق الدجاج إلى الخارج صاخباً، واندفعت الديكة فى الصباح، وتزاحمت الكتاكيت تتعثر بين أرجل الكبار. وجدت فى الركن أربع بيضات، تناولت أنية الحب ونثرت منها أمام الدجاج، فاندفع كالفدائف يلتقطها فى نهم، وتباطأت الديكة التى كانت ما تزال منشغلة بالصباح تحية لليوم الجديد، قبل أن تحذو حذو الدجاج فى ترفع، وأما كبيرهم فقد ظل يقف عالياً متغطرساً فوق ماكينة فاسكو النحاسية لتقطير "الراكية" التى تجعل رائحة التخمر النفاذة مخيمة دائماً على المكان. وملأنى ذلك بشعور مفاجئ بالامتعاض من فاسكو.

رأيت الأجراس الضخمة للكنيسة القديمة معلقة على فرع شجرة فى الفناء، الكنيسة ذات السبعمئة سنة تحولت إلى مزار أثرى بلا قداسة، بينما نزعت الأجراس منها وعُلقت خارجها كالمشنوقة. اتجهت إليها ورحت أدق.. أدق.. ملأنى الصوت المباغت فى البداية برهبة عميقة، وفى نفس اللحظة استبدت بى رغبة متحدية فى التماذى، تلاشت الرهبة حتى توحدت مع الأجراس فى إيقاع موزون، دب الذعر فى الدجاجات وتوقفت عن النقاط الحب، وأمالت رؤوسها إلى أعلى وهى تقأقئ مستشعرة خطراً داهماً، بينما قفز ديك فاسكو من فوق الماكينة وانزوى منزعجاً.

وقفت مارتينا فى الشرفة المطلة على الفناء، تظلل عينيها بيدها تحت شمس يوليو القوية، صاحت:

- ماذا هناك ؟

- جرس الافطار.

- لكن بتريشيا لم تحضر بعد، ما زالت تحلب الشياه فى الحظيرة.

- لا حاجة بنا للحليب اليوم. وجدت أربع بيضات.

- لكن الآخرين ما زالوا نائمين.

- أنا جوعان، أأست كذلك أيضاً ؟

أطل من خلفها رأس فاسكو الأأشيب لامعا فى ضوء الشمس، استند بذراعيه الضخمتين على الحاجز الخشبى للشرق، صاح بغضب مكبوت بلغة إنجليزية مكسرة ومضحكة:

- محمد.. إذهب وتناول إفطارك إذا كنت جائعاً، لكن لا تزجج الآأخرين !
أمسكت مارتينا ضحكها الطفلية الشامتة بصعوبة وهى توزع النظرات بينى وبين فاسكو، وجلست أنا على الدرجات الحجرية فى الشمس، أتعجل جفاف الملابس المبتلة.
أيقونة بتريشيا:

وضعت بتريشيا الشقراء ذات العشرين ربيعاً كوب الحليب أمامى، وكانت ترتدى بلوزتها البيضاء الفضفاضة المطرزة التى أحبها. من مكانها القريب بجوارى لاحظت أن بشرتها البيضاء ذابلة ويتأثر عليها حب الشباب، وأن بالعينين الخضراوين الضيقتين حزناً غائراً لا يذيبه حتى الصباح المشرق. لاحظت أن لدينا اليوم ضيفان جديان، ذكر فاسكو أنهما مصور ونحات من أبناء المدينة المجاورة وقد انضمنا إلينا، أصبحنا الآن عشرة، عبء إضافى على بتريشيا.

يتصدر فاسكو المائدة كالعادة، راسخاً مسيطراً كجنرال، حيث يخيم الصمت أثناء تناول الطعام إلا من صوت أدوات المائدة فى الأطباق، ذكرنى بالسيد أحمد عبد الجواد فى "بين القصرين"، ومن جانبه الأيسر القريب منى لاحظت أثر الجرح الغائر فى جبهته فضاعف من تقطيبه - ومع ذلك فإنه يدهشنى أحياناً بتصرفات غريبة، فكثيراً ما يقوم بنفسه بإعداد العشاء ووضع الأطباق أمامنا، وأحياناً يفاجئنا بتقديم طاجن من اللحوم المسقية بالراكية بعد إخراجها من الفرن دون أن يطلب من أحدنا المساعدة، فيما عدا مارتينا بالطبع، وفى تلك الأوقات لا يبخل بإخراج أى عدد من زجاجات الراكية والنبيذ التى يصنعها بنفسه، عندئذ فقط يتخلى عن وقاره ويسمح للابتسامة أن تمر على صفحة وجهه.

مال على مارتينا إلى يمينه وأخذاً يتهامسان بالبولندية، كانت تبتسم، نظرتُ إلى عينيها فتحاشت أن تلتقى نظراتنا، صاح بعد قليل مناديا بتريشيا، وحين جاءت مسرعة أخذ يشرح لها شيئاً، ثم أخذ صوته يعلو ويحتد حتى صار أقرب إلى الغضب. لم أفهم شيئاً من حديثهما بالمقدونية، لكنها بعد قليل أخذت تردد: نعم.. نعم.. فى صوت ضعيف جعلها تبدو أصغر حجماً، استطعت أن أؤمن أنه كان يبلغها تعليماته حول غداء اليوم.

اتخذ الطعام فى فمى طعماً مرا، تخيلت كيف سيقوم فاسكو بعد قليل إلى حجرته المليئة بزجاجات الخمر، ويفرد أمامه على المنضدة أوراق اللعب، ويظل طوال اليوم يرصها على وجوهها ثم يقلبها واحدة واحدة ويعيد رصها متجاوزة، محاولاً أن يستخرج منها معنى ما، وابتداء من العصر يشرح فى عب الخمر وحيدا أو وهو ينظر إلى جهاز التليفزيون وسط انشغاله بأوراق اللعب، وقد يخرج مع مارتينا إلى الجبل أو للتجول فى المدينة القريبة وحدهما بسيارته.

قمت إلى المطبخ، طلبت من بتريشيا كوباً من اللبن الزبادى، ملأته لى، داعبت ذقنها الدقيق بأناملى، فابتسمت فى براءة طفلة وعيناها تضيقان كعادتها حين تشعر بالخجل، أخذت كوب الزبادى وخرجت إلى الشرفة المطلة على القرية والجبل، رحلت أرتشف اللبن فى استمتاع وما زلت أفكر فى بتريشيا، حاولت التعرف على كوخها وسط مئات الأكواخ البعيدة... إنها تغادره قبل السادسة صباحاً ولا تعود إليه قبل الخامسة مساءً، تظل طوال اليوم تكنس وتمسح وتطبخ وتجمع الخضروات من المزرعة وتنزل إلى السوق عدة مرات من أعلى الجبل وتصعد ثانية بحملها الثقيل.. وحدها طوال اليوم تتلقى صياح فاسكو والآخرين: باتريشيا.. قهوة!.. باتريشيا.. شاي! باتريشيا الغداء.. وفى أوقات الراحة النادرة تجلس وحيدة - حتى وهى معنا - تدخن سيجارتها فى صمت.. كان ينبغى أن تكون اليوم فى الجامعة، هكذا فهمت منها مرة بصعوبة شديدة، لقد حصلت على الثانوية العامة، لكن لها ثلاثة إخوة أصغر منها، منذ أول يوم أحسست

بالتعاطف الأخوى معها، لكن جهلى بلغتها كان دائماً عقبة أمام التفاهم. كثيرا ما تذكرنى بأختى نادية، التى ظلت بالقرية دوننا جميعاً، تخدمنا فى صبر لأنها لم تكمل تعليمها.

أيقونة الجبل:

وقفت أمام البوابة الأثرية للمستعمرة، تلك التى كانت بداية دير الرهبان، تعلوها الأيقونة المرسومة بألوان الفريسك للقديس ميخائيل فوق جواده مواجهها قوى الشر، إنها مليئة بالحركة لكن الوجوه ساكنة أو محايدة، وعيونها الواسعة خالية من أى تعبير. اتجهت حاملا حافظة أوراق الرسم والأدوات إلى الطريق الخلفى عبر ممر ضيق ملئ بأشجار التفاح والبرقوق البرى الصغير، لم أرسم الأشجار منذ جئت، كنت أفضل دائماً الصخور، ربما لأنها جعلتني أكمل ما بدأتها فى سيناء.. ها هى صخرة تبدو كحيوان خرافى يتحفز للانقضاض، وهذه كأنها نسرٌ يهيم بالإقلاع، وهاتان تتلاحمان كجسدين متعانقين، وبينهما فراغ مظلم يرقد فيه حجر صغير يبدو وكأنه طفلهما، وذلك مسطح صخرى شامخ مفروود كالشراع، عليه رسم قديم حالت ألوانه لقديس فوق حصانه، قام برسمه بعض الرهبان يوما كأيقونة فى صومعة للعبادة كانت هنا منذ زمن سحيق.. أصبحت كل صخرة من هذه الصخور تحمل الآن علامة مستديرة بيضاء، تصنفها ضمن هذا المتحف المفتوح. استندت بظهرى على إحدى الصخور أتأمل فى الجانب الآخر علامات غامضة حفرت فى الصخر بأيد آدمية.. من هنا مر الرهبان والرومان، الفدائيون والعثمانيون، الجياد والعبيد.. رأيت فى زاوية متوارية حفرة مستطيلة داخل الصخر فى قامة إنسان، من الذى دفن هنا؟.. وعلى أى مذبحه تشهد هذه الصخرة؟.. العلامات الدامية فى كل مكان، والسكون شاهد أخرس، متربص.

جلست محتميا بظل صخرة وبدأت الرسم، كان الجبل يبدو أمامى كتلا من العجائن المتلوية المتشابكة حيناً، وسطوحاً حادة الزوايا متداخلة الأوجه، كمكعبات بلورية حيناً آخر، تخترقه طرق ثعبانية على مدرجات محفوفة بالصخر المتحفز

للانقضاض. أنهمكت أرسم بكل جوارحي، وكنت أرى صفوف العبيد فى أعالى الجبل حاملة قطع الأحجار الرخامية، يناولها كل واحد للآخر، حتى تصل إلى موقع العمل فى بناء قلعة الملك ماركو، وكنت أرى الجند العثمانيين بسياطهم يسوقون صفوفًا من المتمردين على مدارج الجبل... الصخور تتلوى بين أصابعى وأنا أرسمها على الورق، تصرخ متوحشة ومتأنسة معاً، لا تسعفى الألوان الشمعية فألجأ إلى قطع الفحم السوداء، أكتسح بها المسطحات البيضاء فى جرات عريضة مسيطرة، أنتقل من مكان إلى مكان بين ممرات الجبل، لا أبالى بالشمس التى توسطت السماء، أصبحت قطع الفحم جمرات بين أصابعى لا يطفئها غير ملمس الورق، لكنها ما أن تلامسه حتى تعود إلى الاشتعال فلا يخلصنى منها أو يخلصها منى إلا تلاشيها بين أصابعى التى تحترق، فأعود إلى النقاط قطعة أخرى، يطفح أمامى على الورق وجه فاسكو، لحميا مترهلا غليظاً، يصبح قريب الشبه من هذه الصخرة الجلاتينية، ما أكبر الشبه بين الملامح التى تتخلق الآن وسط الصخور وبين وجه ضابط المباحث المجدور منذ عشر سنوات، حين انتزعونى من مرمى عند الفجر، وكانت فيروز تشدو للقدس من جهاز التسجيل وأنا أرسم محموماً كما أرسم الآن ...

توقفت عن الرسم لاهتا وغاضبا، استرخيت مستندا إلى صخرة، شعرت بطعم الصديد فى حلقى، بصقت، أغمضت عيني متسائلاً عن فتح منابع الصديد وبينى وبين بواباته جبال وبحور!؟

حاولت استدعاء حلم البارحة، فوجدت أننى قد نسيتته تماماً.

أيقونة فاسكو:

قبل أن أفتح عيني كنت قد رأيتها، ذلك أنها كانت تقف هناك، فوق قمة صخرة، حاجبةً بجسدها الممشوق نصف العارى جزءاً من ضياء الشمس، وكان شالها الحريرى يرفرف حولها، أشبه بإلهة إغريقية.

اقتربت مارتينا على مهل، تنزاح الغمة عن صدرى شيئاً فشيئاً، ومع ذلك فقد تصنعت الانشغال فى الرسم متجاهلاً أنها على بعد خطوة توقفت أمامى، كتلة معتمة عكس الضوء، فامتلاً المكان بزخم وجودها الأنثوى، قالت:

- يبدو أنك رسمت كل صخور الجبل.. أليس كذلك؟

- ليس بعد.. وأنت؟

- إنك لم تترك لى شيئاً لأرسمه.

اقتربت وجلست بالقرب منى، راحت تتصفح اللوحات على مهل، وعيناها مقطبتان بنوع من الألم، مر وقت طويل قبل أن تقول:

- يا إلهى ! .. إنك مأساوى !.. فظيع !

ثم استرخت فى جلستها فاردة ساقىها المكتنزتين وقد توردتا من حرارة الشمس، وكان خذاها أكثر تورداً، وإن لم يكن بسبب الشمس وحدها.

قالت بنبرة حاولت أن تكون حيادية:

- لم تركنتى وخرجت وحدك؟

قلت بعد تردد:

- كان يمكن أن تذهبى مع فاسكو.

- إنه مشغول بأوراق اللعب.

قلت متهكماً: يا له من قاس !

قالت ضاحكة وهى تغمز بعينها: أنت تغار !

- ممن ؟ .. إنه فى عمر أبىك.

- فعلاً .. ثم إنه يتكلم لغتى .. إنه الوحيد هنا الذى يفهمنى وأفهمه.

- ها أنت قلتها بنفسك .. الوحيد !
- لا تكن أحمق !
- إنك لم تكملی لوحة واحدة منذ جئت .. هل لى أن أسألك: لماذا جئت ؟ فكرت قليلا، وقالت وهى تخطط على الأرض بإصبعها:
- جئت لكى أعرف ماذا أريد.
- وهل عرفت الآن ؟
ثنت ركبته وأسندت ذقنها إليها وسرحت بعيدا .. قالت بجدية:
- على أن أتخذ قرارات صعبة.. ولا أستطيع.
انتظرت أن تواصل، لكنها ظلت صامتة. فصل بيننا صمت طويل حتى قلت فجأة:

- مارتينا.. هل تحبين فاسكو ؟

- نعم !

قالتها هكذا بعفوية، دون أن تشعر بوجودى.

من وسط ذهولى كدت أقول لها: يا لها من نكتة !.. إنها لا بد أن تكون مختلة العواطف حتى تقع فى حب هذا السكر العجوز، إنه موهوب للموت بينما هى موهوبة للحياة، فكيف يلتقيان ؟ ... لكنى لم أنطق بكلمة.

انتبهت إليها ترمينى بحصاة فى صدرى وتقول ضاحكة:

- أين ذهبت ؟

- لا شئ.. هذا شأنك على أية حال.

- لكنك ذهبت فى الاتجاه الخاطئ.

واستأنفت بعد قليل بنبرة ناعمة:

- محمد.. أنت بالنسبة لى شئ مختلف.

وكان وجهها متوهجاً بإشعاع خاص لم أره من قبل، وشعرت بأن ابتسامتها التى تتذبذب على استحياء تحمل رسالة دافئة إلى، استبدت بى رغبة لا تقاوم لاحتواء وجنتيها المتوردتين بين راحتى، وحين أطعتها وفعلت، ضربتني بشدة وانفلتت تجرى وتتسلق الجبل بمهارة.

اندفعت خلفها، تلفت باحثاً عنها فلم أجدها، صحت: مارتينا!.. أجابنى صدى الصوت، عدت أبحث عنها خلف الصخور القريبة، وفجأة صرخت من خلفى ضاحكة وأفزعتنى، وقبل أن أمسك بها فرت هاربة وأنا أطاردها، أخيراً تمكنت منها واحتضنتها من الظهر، شعرت بحرارة جسدها وليونته وهو يستكين للحظات قبل أن ينتفض متملصاً من بين ذراعى، استدارت نحوى بغته وقد تحجرت ملامحها، وبدأ فى البزوغ من قرار عينيها الزرقاوين مشروع صغير للغضب وهى تشهر سبابتها فى محذرة.

استدرنا نسير صامتين متباعدين ببطء متخاذل، وأنا ممتلىء بفضاء أجوف. أخرجت من حقيبتها صورة فوتوغرافية ملونة وقدمتها إلى، كانت تضم صورتها مع طفلة فى السابعة ورجل شاب، وكان من السهل استنتاج أنهما ابنتها وزوجها.

قلت: إنه يبدو صغيراً.. ووسيماً.

- نعم .

- تحبينه ؟

صمتت مترددة مطرقة إلى الأرض، قالت كأنها تحدث نفسها:

- إنه لن يعود إلى البيت على أية حال.

التزمت الصمت لمسافة طويلة عبر الصخور، عبر أمامى وجه أميرة: كم مرة
منعت نفسى من الكتابة إليها لتعود، بعد أن سافرت إلى الكويت ومعها طفلتنا ياسمين
فور إجراء الطلاق!.. قطعتُ الصمت أخيراً:

- المشكلة من جانبه أم من جانبك؟

تنهدتُ وهى تغلق الموضوع:

- إنها حكاية طويلة.

واصلتُ حصارها:

- وفاسكو؟

- ماذا تعنى؟

فجأة خاطرت باقتحام بابها المغلق:

- مارتينا.. هناك شئ لا أستطيع أن أخفيه عنك...

- ماذا؟

- ليلة أمس، كنتِ ساهرة فى حجرة فاسكو وحدكما.. أليس كذلك؟

توقفت عن سيرها ونظرت إلى لائمة:

- كنت تراقبنى؟

قلت بسرعة:

- لا لا.. لقد كنت مستيقظا فى حجرتى وسمعتك عند خروجك.. صدقيني.

عادت تسير مطرقة..

- إذا صدقتك فلن تصدق ما سأقوله لك..

- بل سأصدقك.. أعدك.

أمسكت بيدي وسارت في اتجاه آخر وهي تقول :

- تعال معي، سأريك شيئاً.

أخذنا نصعد الجبل ونسير على حواف الممرات، ومن تحتنا تبدو المدينة غامضة
مثل نكري بعيدة، أخيراً توقفت مارتينا عند مجموعة من الصخور تكوّن فيما بينها
فراغات أشبه بالمغارات، قالت لاهثة وهي تشير إلى إحداها:

- هذا الكهف ...

- ما شأنه ؟

- إنه كهف فاسكو .

- لا أفهم .

- كان مخبأه مع رفاقه المحاربين منذ خمسة وأربعين عاماً .

- ضد من ؟

- ضد جيش الملك والنازي، كان في السادسة عشرة، إنه يحمل وسام البطولة.

- هو الذي أخبرك بذلك ؟

- نعم

ابتسمت متشككا، قالت بانفعال :

- هل لاحظت أثر الجرح في جبينه ؟ .. لقد أصيب في القتال.. وهناك جراح

أخرى في جسمه، كان يمكن أن يُقتل، لقد رأيتها.

سرحتُ بعيداً، ثم التفتُ إليها أستجلى الحقيقة في عمق عينيها، قالت:

- ها أنت لم تصدقني كما وعدت !

- إننى لا أكذبك، لكننى أتساءل: يا لها من حياة لائقة ببطل، تلك التى يحيها
الآن فاسكو !

قالت بعد لحظات وهى تعانى لتجد الكلمات الانجليزية:

- عندما تترفع عن أن تأخذ ثمن بطولتك، ثم ترى الآخرين يأخذون كل شئ بلا
بطولة، ويكذبون، ويسرقون الهدف الذى كدت تموت من أجله حتى لا يبقى منه شئ، ثم
إنك تفقد من أحببت.. الزوجة والابن والصدىق... فماذا يبقى لك غير الخمر وورق
اللعب ؟

جلسنا صامتين لا نجد كلاما، أو لا نجد معنى للكلمات. لا أدرى كم مر من
الوقت، لكننى أفقت على سؤالها:

- ألن تعود ؟

قلت دون أن أنظر نحوها :

- أظن أننى سأبقى هنا قليلا.

قامت ومضت صامتة، متناقلة، تحت شمس يوليو العمودية.

أيقونة السلحفاة

جلست فى مواجهة كهف فاسكو - كما زعمت مارتينا - أتأمل فوهته المظلمة.
عاد الغضب يجتاحنى، لكن دون أن أعرف مصدره، أو إلى من أوجهه. فكرت:
ربما كان مصدره عجزى عن الفهم، كل شئ يحتمل الحقيقة والكذب... كل شئ؟...
وخطرت بتريشيا على ذهنى، فكرت: إنها الحقيقة الوحيدة حتى الآن بالنسبة لى، لكن
من أين لى هذا اليقين؟.. إننى فى الحقيقة لا أعرف حتى ماذا يعمل أبوها !

استرعى انتباهى شئ فى مدخل الكهف، عند الحافة بين الضوء والظلام، قمت وأمسكت به، كان سلحفاة جبلية ميتة، وقد نهشها حيوان فلم يبق منها غير صدفتها المقسمة إلى معيّنات ملونة بالأصفر والأسود وفى أحد جانبيها بقيت بعض أرجلها الجافة، شممتها فلم أجد لها رائحة، فعرفت أنها ماتت منذ زمن. وضعتها أمامى على طرف الصخرة ورحت أتأملها.

كان الصمت ثقيلًا وعميقًا فى قلب الوجود، إلا من نداء. متقطع لطائر الشكشوك، يرسله من بين ثنايا شجر البر فى أعالي الجبل إلى إلفه الذى هجره. حملت أوراقى مع بقايا السلحفاة ونزلت منحدرات الجبل، وعلى المدى البعيد رأيت حصانا أسود يرعى العشب فوق الجبل، وفجأة رفع رأسه عن العشب ومد عنقه ورأسه إلى الفضاء كأنه يريد أن يصله لكنه لا يستطيع، كان واقفا هناك بجسمه الرشيق النحيل الممطوط، فى مواجهة الشمس، ومن خلفه أفق بنفسجى مضرب لجبل بعيد، غارق فى الوحدة.

مجلة إبداع

سبتمبر 1988

القضية

(1)

التجمع الخامس..

قرأها مصطفى بعناية أعلى مقدمة الأتوبيس

صعد في لهفة، غير مصدق أن يجد السيارة واقفة كأنها في انتظاره بمجرد خروجه من محطة المترو.. ازداد لهفة وهو يختار أحد المقاعد الخالية ويجلس عليه منتصراً.. حلم أن علم؟.. إنه يوم الحظ السعيد!.. المترو يقطع المسافة من لحظة السيدة زينب إلى محطة سراى القبة فى أربعة وعشرين دقيقة حطى خلالها أيضاً بالجلوس على غير العادة.. ها هو يجلس ثانية فى المواصلات التى حسب ألف حساب للعثور عليها حتى يلحق بجلسة النيابة فى العاشرة صباحاً.. ولم لا؟.. إن سكان التجمع الخامس ليسوا مثل أى ناس!.. هم على القوم.. أغلبهم يملكون سيارات خاصة، وفقراؤهم يستقلون التاكسى.. حتى أفقرهم لا يليق بهم انتظار الأتوبيس أو الركوب وقوفاً مضغوطين وسط الزحام، فلا أقل من توفير الراحلة لهم بسيارات تديرها الشركة المنشئة للمدينة. أتحسب نفسك منهم يا درش؟.. دا بعدك!.. إنك - بالكاد - ذاهب لمرة واحدة قد لا تتكرر.. ربما تلك بركة أخيك أحمد بعد صبر ثلاث سنوات عجاف فعلت فيها المستحيل لتثبت أنه شهيد.. دون جدوى، ربما أن الألوان اليوم، وقد تحددت لسماع شكوانا جلسة فى نيابة مجمع المحاكم بالتجمع الخامس، لتثبت حقه؟.. المحامى متقائل جداً بعد أن توصل إلى شاهدين من أولاد حيننا كانا معه فى الاعتصام ليلة أحداث "الاتحادية" وشاهدا كيف قتل.. سيكونان مع المحامى هناك بعد قليل.. وستدب الحياة من جديد فى قلب أمى التى تعيش معلقة بين الأمل واليأس.

تسارعت دقات قلبه والساكن يدير محرك السيارة كى تتطلق.. تتمم ببعض الأدعية متوسلاً إلى الله أن يفتح الباب فى وجهه.. فما عاد أمامه من أمل غير هذا..

حياته نفسها أصبحت رهناً بثبوت استشهاد أخيه.. الأب رحل بعد أزمة قلبية عندما تيقن من ضياع أحمد.. سنده في شيخوخته وعجزه.. وأخته فسخت خطوبتها لعجزهم عن تجهيزها ولأسباب أخرى، أما هو فتعثر في دراسته بالكلية للعام الثاني.. مشتتا بين المشاركة في المظاهرات ليكمل مشوار أخيه، وبين القيام بأعمال تافهة لتوفير العلاج لأمه التي تذوى الحياة فيها بين يديه كل يوم وتزداد اقتراباً من الموت، وبين التردد على أقسام الشرطة والمستشفيات ومكاتب المحامين بحثاً عن جثمان أخيه والاعتراف به كشهيد، وكان أختفاء الجثمان هو العقبة التي تحطمت عليها كل الجهود، والأقسى على نفسه كان بحثه عن الجثمان بين مئات الجثث في مشرحة كل مستشفى يدخله، ليس لانتهاك حرمة الموت، بل لأنه كان يرى أشباه أخيه في عشرات الجثث، فيضطر للاقترب والتمعن في الوجوه المشوهة، واستنشاق رائحة الفورمالين التي لا تطغى على النتن، ثم يكتشف أن أخاه ليس من بينها، فيخرج وهو يغالب الغثيان!

اليوم سيكون الأمر مختلفاً مع وجود الشاهدين على موته. بعد أن يشهدا باستيلاء "الإخوان" على جثمانه مُدَّعين أنه من شهدائهم.. يا إلهي!.. هل يجروء على ذكر ذلك لأمه وهي تعيش على يقين بأنه لا يزال يحيا في مكان ما وأنه راجع إليها لا محالة؟.. أيكون إثبات استشهاده رهناً بسلب الحياة منها؟!

(2)

أفاق على وقوف الأتوبيس ونشوب جدل بين الركاب والسائق الذي أكد أن الموتور تعطل وليس بوسعه تشغيله، وأنه أتصل بالصيانة لتجره إلى الورشة، وأن عليهم النزول لأخذ سيارة أخرى. لم يصلوا إلى نتيجة غير إعلان الغضب وإطلاق بعض الأسباب لكل الأوضاع الفاسدة التي أوجدتها "الثورة".. ثم الرضوخ في النهاية للأمر الواقع بالنزول والبحث عن وسيلة أخرى. نزل متباطئاً وهو يشعر بحجر ثقيل يجثم على صدره، أصبح لحاقه "بالجلسة" وإنقاذ حق أخيه رهناً بهذه السيارة اللعينة.. إن عليه أن يفعل كما سيفعل جميع الركاب على كل حال.. فوجئ بأنهم تفرقوا في اتجاهات مختلفة،

سأل عن محطة الأتوبيس التي يركب منها إلى التجمع الخامس، سار في اتجاه المكان الذى وُصف له.. كانت دهشته كبيرة عندما لم يجد على المحطة أياً ممن كانوا معه بالأتوبيس المعطل. هل استقلوا سيارة أخرى وصلت إلى المحطة قبل وصوله إليها؟.. لم يكن أمامه غير الانتظار على كل حال.. أخيراً أهلاً الأتوبيس وفوق غُرته كلمة "التجمع الخامس".. عادت إليه الروح وهو يصعد ويتخذ مكانه بين الركاب القلائل.. لاحظ أن الأتوبيس يتخذ مسارات وشوارع ويمر بمناطق سبق أن رآها أثناء ركوبه السيارة السابقة. أستبد به القلق.. سأل الركاب المجاورين له.

- أذهب هذا الأتوبيس إلى التجمع الخامس؟

اختلفت الأصوات وهى تجيبه بأنه عائد الآن بالفعل من التجمع الخامس إلى وسط البلد، وأنه عليه النزول لأخذ الأتوبيس من الاتجاه المقابل. أحس بالدوار كأنما تتسحب روحه منه، وتسابق الركاب يطلبون من السائق الوقوف حتى ينزل، توقف السائق متأففاً عند إشارة مرور بمدخل أحد الميادين. نزل مصطفى بينما يشير له الركاب إلى الاتجاه المقابل الذى عليه أن يركب منه، مضى نحو أقرب رصيف حتى مضت السيارة فى طريقها، وقف فى الميدان ينظر حواليه حائراً.. فلم يكن ثمة طريق واحد فى الجهة المقابلة، بل عدة طرق متشابهة تصب فى الميدان الذى يجهل اسمه ولم يره من قبل، كان الأمر قبل نزوله واضحاً بشأن "الاتجاه المقابل".. والآن؛ أى اتجاه مقابل يتجه إليه وهو فى مفترق الطرق؟ إنه مطالب بالعودة إلى الوراء بينما كان يقصد الأمام. هل أخطأ عندما ركب الأتوبيس الخاطئ؟ أم أخطأ من نصحوه بالنزول؟.. وأين هو الآن على أية حال كى يعيد تحديد إتجاهه؟ حاول أن يسأل بعض المارة، لكن الجميع يسرون متعجلين بين إشارات مرور متعارضة، والسيارات تتدفع كالشياطين فلا تسمح لأحد بالانتظار لمجرد سماع السؤال، يعبر الميدان إلى الجانب المقابل للمكان الذى نزل فيه، على الرصيف استجاب أحدهم لسؤاله وأشار له إلى مكان المحطة، المنطقة التى توجد بها المحطة تمتلئ بالأبراج الشاهقة، وعلى أبوابها أو واجهاتها

لافتات باللغة الانجليزية كمكاتب لشركات ووكالات تجارية.. المنتظرون على المحطة قليلاً، اللوحة الإرشادية التي تحمل أرقام الأتوبيسات لا تتضمن رقم الأتوبيس الذي يخصه، كلما سأل أحدهم عن الرقم الذي ينتظره رد بأشارة من رأسه بأنه لا يعرف.

ينظر في ساعته، يكتشف أن الوقت يتقرب من العاشر، قلبه يسقط في ركبتيه، يكاد يسمع ضرباته العنيفة، الصباح المشرق تظلم شمساً.. هل ضاعت القضية؟.. لكن المحامى والشهود هناك، يمكنهم دخول الجلسة بدونه وسوف يلحق بهم. لكن وجوده ضرورى لتوكيل المحامى عنه. اللعنة على النسيان!.. لقد نسى وهو ينزل من البيت فى الصباح مهرولاً للحاق بالموعد أن يأخذ معه هاتفه المحمول، أكتشف ذلك وهو فى المترو وكان من المستحيل العودة إلى البيت لأخذه، هون الأمر على نفسه عندئذ بأنه ليس بحاجة إلى الهاتف طالما سيصل فى مواعده، ما كان فى حسابانه أن يحدث ما حدث. خطر له أن يستأذن أحد الواقفين فى استعمال هاتفه للاتصال بالمحامى طالباً منه المشورة، تبين أنه لا يذكر رقم هاتف المحامى المسجل على قائمة أرقام هاتفه.

(3)

عند وصول أول أتوبيس أسرع إلى سائقه وسأله عن السيارة المتجهة إلى التجمع الخامس، أخبره السائق بعدم وجود خط مباشر من هنا إلى هناك، لكنه يستطيع أن يوصله إلى أقرب مكان إليه، ومن هناك يواصل سيراً على الأقدام لعدة دقائق، اندفع صاعداً السيارة، وبداخله قلق من مدى صحة ما سمعه، وقد تصاعد لديه شعور غامض بأن ثمة من يسعى لاستدراجه بعيداً عن قضيته، لكنه يسارع بطرد الفكرة من خاطرة مؤكداً لنفسه أنه لا يؤمن بنظرية المؤامرة.

أخيراً توقف السائق وناداه كى ينزل، كان المكان الذى توقف عنده يقع أمام كوبرى خرسانى يمتد محاذياً طريق السيارة، أشار السائق نحو شارع يتقاطع مع الطريق الذى نزل فيه قائلاً إن عليه أن يدخل منه ليصل إلى غايته، امتثل مصطفى وعبر الطريق الهادئ الذى تجرى فيه سيارات من آخر طراز وتطل عليه عمارات شاهقة

ومحلات تجارية كبرى لم تفتح أبوابها بعد، اختلط عليه الأمر فيما إذا كان السائق قد أشار يمينا أم يساراً، فى النهاية رجع جهة اليسار،.. مرّ من تحت الكوبرى نحو الجهة المقابلة، و جد نفسه فى منطقة نقيضة تماماً لتلك التى نزل فيها على الناحية الأخرى من الكوبرى، منطقة شعبية مكتظة بالبشر وعربات الكارو والتوك توك وأكوام القمامة تشبه حى امبابه لولا أنها ترتفع فوق تل هائل وتتصاعد فوق البيوت بشكل عشوائى، وكأن جسم الكوبرى الخرسانى الممتد بطول الطريق ليس إلا ستارا يفصل بين عالمين متناقضين، وثمة أشخاص نائمون تحت الكوبرى بين أطفال وشباب من الواضح أنهم بلا مأوى، وعاد الشعور الغامض يراوده بأنه استدرج إلى هنا حتى يضيع موعد قضيته.. تأكد ذلك لديه عندما حاول أن يسأل بعض المارة وأصحاب المحلات الصغيرة فى الطريق عن محكمة التجمع الخامس، فواجهوه بتعبيرات الدهشة وكانت السخرية تطل من العيون، لكن البعض ممن يمكن وصفهم "بالمثقفين" بين من سألهم من أبناء المنطقة أ خبروه بأن هناك محكمة قديمة قريباً من هنا، لكنها أُحرقت فى أحداث الثورة ولم تعد تعمل، وربما توجد بها نيابة تعمل بصفة مؤقتة..

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحاً، ووجد مصطفى أنه من العبث أن يستمر فى البحث عن محكمة التجمع الخامس.. كان شعوره بالضياح يجعله يمضى كالمخدر بغير اتجاه أو هدف.. جلس على قاعدة عمود حجرية وظهره تجاه الكوبرى مواجهاً لهذه المنطقة الغريبة.. ما العمل الآن؟.. هل يكرر حلقات نفس السلسلة العبيثية التى مر بها بكل مراحلها ومحطاتها فى طريق العودة؟.. احتوى رأسه بين كفيه مسترجعاً شريطاً من الوجوه ابتداء من شقيقه الأكبر أحمد.. ثم والده.. ووالدته.. وأخيراً وجه المحامى.. وانعقد ا لجميع فى حلقة أحاطت به وضيق الخناق حوله كالسوار تتهمه بالخيانة. تمكن منه الإحساس بالقهر والظلم والهوان كما لم تتمكن منه من قبل، فانخرط بيكى فى صمت.

(4)

أفاق على يد تُرَبَّت على كتفه. رفع وجهه، كان أمامه شيخ يناهز السبعين يرتدى جلباباً أبيض، تحيط بوجهه لحية بيضاء كهالة من نور.

- ما بك يا بنى؟

قالها فى حنان وإشفاق.. أطمأن إليه قلبه بشكل تلقائى، لكنه لم يُفقه بكلمه

- هل ضاع شىء منك؟

هز مصطفى راسه نفيماً، وهو يقاوم الرغبة فى فتح قلبه له. أمسك الشيخ بذراعة وأنهضه قائلاً..

- قم معى قليلاً على القهوة.. إسم الكريم إيه؟.. عرف أن اسمه (عارف) أخبره مصطفى باسمه وسلم له نفسه طائعاً وعبر معه الشارع، وعلى مقهى قريب جلسا.

- نشرب شاي يا درش؟.. أقول لك؟.. نأكل لقمة الأول.. يبدو أنك لم تقطر.

تذكر أنه لم يتناول شيئاً اليوم بالفعل لكنه لا يشعر بالجوع، والشيخ عارف ينادى على الجرسون ويطلب منه إحضار ساندوتشين فول وطعمية من البائع على الناصية. لم يعترض مصطفى ووجه إلى الشيخ عارف نظرة شاكرة بعينين مبللتين.

- قل لى إذن.. ما حكايتك؟

حكى مصطفى له كل شىء بدون تفاصيل.. وأحس بأنه أزاح حجراً عن صدره - صمت الشيخ طويلاً وهو يخطط الأرض بعصاه التى يستند بذقنه على مقبضها. دب القلق فى نفس مصطفى لاستطالة الصمت.. قبل أن يسأل فجأه صوت الشيخ عارف وهو على نفس وضعه وإن تحوّل نحوه بوجهه:

- أخوك حى يا بنى.. لم يميت؟

انتفض مصطفى فزعاً.

- أنت تعرفه؟

- أبدا.. لكن كما قلت لك.. هو حى.. سواء كان يحيا فوق أو تحت.. قل لأمك ذلك.. ستستريح.. وحقكم لن يأتى به المحامى.. (وأشار بأصبعه إلى أعلى) هو وحده من سيأتى به فى الوقت الذى يشاء..

جاء الجرسون بساندوتشين وكوبين من الشاى.. أثارت رائحة الطعمية شهيته، فتناول ساندوتش الطعمية، ومدَّ يده بساندوتش الفول إلى الرجل فهز رأسه مبتسماً وقال: الاثنين بتوعك. أنا فطرت.

سأل مصطفى الشيخ وهو يأكل عن اسم الحى الكائن فوق التل.. قال:

- كوم شحاته.. كان بلداً بحالها !

- كان؟.. والآن؟

- أبدا.. تستطيع رؤيته إن شئت قبل أن ترجع.. لكن لا بد أن تعود قبل أن تغيب الشمس.

صافح مصطفى الشيخ عارف وهو يشكره بحرارة بعد أن تناول إفطاره، وسأله عن وسيلة المواصلات التى يستقلها إلى أقرب منطقة بوسط البلد، قال الشيخ:

- أى توك توك سيوصلك!.. خل بالك من أمك.. مع السلامة.

(5)

أمام الشارع المؤدى إلى كوم شحاته توقف مصطفى ونظر إلى امتداده الصاعد على مستويات تتخللها درجات قليلة.. كانت الغمة ثقيلة على قلبه برغم ما ذكره الشيخ.. قال لعله يروّج عن نفسه قليلاً ويأخذ فكرة عن هذا الحى (الذى كان).. هى دقائق معدودة ويخرج للعودة إلى بيته عساه يعرف ما حدث فى القضية، يتضاءل عدد المارة كلما توغل فى الحى حتى ينعدم وجودهم تماماً.. الحارات ضيقة للغاية، تتلوى وتتفرع إلى ممرات تصعد وتهبط بدرجات صغيرة أو بانحدارات هَيِّنة. البيوت مفتوحة وخالية من البشر ومن الأثاث أيضاً.. مهجورة تماماً حتى من الكلاب والقطط الضالة.. أدهشته

نظافتها وانعدام أكوام القمامة بها. تدارك ساخراً من نفسه بان ذلك أمر منطقي.. فمن أين تأتي المخلفات في غياب السكان؟!.. يحتار في معرفة المادة التي بنيت بها البيوت.. أهى من اللين المكسو بالطين والجير، أم من الأحجار والأسمنت المكسور بطبقة ملساء بغير زوايا حادة في الأركان.. ليس هناك طراز هندسى للبناء، مجرد كتل متلاصقة عشوائياً تتساند على بعضها البعض، ذات فتحات صغيرة سوداء بغير ضلف أو مصاريع، وكذلك الأبواب الفاغرة على ظلام دامس.. ومع ذلك استهواه شكل هذه البيوت برغم ما يخيم عليها من صمت موحش، يشعر بأنه رأى مثلها في مكان ما.. أين؟.. لم يعد يذكر.. بعد قليل تذكر أنه رأى مثلها ضمن لوحات معرض لأحد الفنانين، دعاه إليه بعض رفاق ائتلاف الثورة بأتيليه القاهرة، عرف آنذاك أن الفنان استوحاها من بيوت واحة سيوه، القائمة فوق جبل وهو لا يعرف حتى الآن أين مكان الواحة، ربما ذكره بتلك اللوحات ما يراه الآن من شرائح ضوء الشمس وهى تفتش بعض أجزاء من الدروب والبيوت وتتسلل بين الممرات.. يذكر أن الفنان قال عنها: إنها لغة الحوار بين النور والظلمة، وبين النوافذ التى تشبه العيون.

يصل إلى نهاية درب بدا مسدودا بجدار، فإذا به يقود إلى درب جديد وتفرعات ضيقة ليس لها آخر.. تتبدد الدهشة والإثارة وامتعة الاكتشاف، وتحل محلها هواجس القلق والخوف، وإحساس سيطر عليه بأن ثمة مجهولاً عظيماً فى انتظاره.. عاد إليه هاجس استدراجه من قبل جهة ما لتضييع قضيته.. قال الشيخ عارف إنها لم تضع ولن تضيع.. أنا أصدقه.. على كلِّ فإننى دخلت هنا باختياري بعد أن فات موعد القضية.. فم اخاف؟.. الشيخ عارف طلب منى أن أعود قبل غروب الشمس.. أذلك علاقة بظهور الأشباح؟.. ما كان الرجل ليسمح لى بالمجئ وهو يعلم بوجود أشباح. إنه يود الخير لى.. فى وجودى هنا إذن خير ما.. على أن أعرفه.. لكن هذا الفراغ. هذا الخراب.. لا يحمل خيراً.. وقد تأخر الوقت واقترب الغروب.. أصبح همه العودة إلى الشارع الذى جاء منه.. توقف متلفتاً حوله بحثاً عن نقطة بداية للخروج.. وجد كل الدروب متشابهة لا توحى بنهاية آمنة، لم تكن الدروب فى البلدة بهذه الإلتواءات.. بهذه

المرواغة.. يتحول الخوف بداخله تدريجياً إلى رعب من أنه لن يستطيع الخروج أبداً..
يزداد هذا الشعور إلحاحاً مع اختفاء أشعة الشمس وغيامة المشهد فى غبش المساء.
يستشعر وطأة الظلام الزاحف واقترب اللحظة المرّوعة لمواجهة المجهول الذى تتبأ به
فى البداية.. نظر فى الساعة فإذا بها متوقفة عند الثالثة!

(6)

فجأة وجد نفسه أمام باب مفتوح يخرج منه ضوء كهربائى أصفر.. يدق قلبه
بعنف.. فرحة ممزوجة با ل خوف.. يتعثر بين الدخول والنكوص.. ماذا ينتظره هناك؟..
بشعور اليأس يقرر الدخول. يقف على العتبة متوجساً حذراً.. يغرقه الضوء ملقياً بظله
الطويل من خلفه.. رأى قائمة كبيرة خالية لكنها مفروشة بأثاث ينتمى إلى الطبقة
المتوسطة.. الأرض مكسوة بأبسطة من السجاد والكليم.. الأرائك والمقاعد أقرب إلى
طرز الأرابيسك.. سمع اصواتاً بشرية خانقة تأتي من ركن فى الجهة اليسرى لا يراه
الزائر لحظة دخوله.. توقف مرعوباً.. لم يشعر به أحد.. تقدم خطوة أخرى حتى تمكن
من رؤية الأشخاص هناك، خمسة أشخاص.. أربعة رجال وسيدة.. بين الكهولة
والشباب.. لدهشته لاحظ أنهم لم يعيروه اهتماماً وربما لم يلاحظوا وجوده أصلاً،
يستغرقون فى حديث يبدو بالغ الخطورة، يتقدم نحوهم ببطء، بشعور يجمع بين توقعه
بأنهم منقذوه أو قاتلوه.. تساءلوا بنظراتهم نحوه عما يريد، وملامحهم تعكس شعورهم بأنه
شخص يتطفل عليهم. أخبرهم بمكانته وطلب منهم مساعدته للخروج والعودة إلى بيته.
دعته السيدة للجلوس بغير مودة.. تحتفظ ببعض من جمال قديم.. تعتنى بزينتها فى
إفراط بشعور واضح بتمييزها، جلس على طرف المقعد.. قالت:

- ما الأخبار عندكم؟

أدهشته كلمة (عندكم) وأوحت إليه بأنهم ليسوا من عالمه وإن كانوا معنيين بأمره،
ذكر لهم أنه حدثت ثورتان شعبيتان وأن كل شئ تغير تماماً عن ذى قبل.. لكن الناس

لا يشعرون بأنهم أفضل. أوأوا برؤوسهم مؤمنين على ما يقول.. إنهم يعرفون كل شيء إذن.. فعمًا يسألون؟.. قالها لنفسه.

سألوه عن المحاكمات لرموز النظامين السابقين.. قال:

- إنها لا تزال مستمرة.. صدرت بعض الأحكام.. ولم ينفذ شيء منها بعد!

- وخريطة الطريق؟..

- هناك من يؤيدها وهناك من يعطلها.

- لمن الغلبة؟

صمت مصطفى. لم يكن سأل نفسه هذا السؤال من قبل.

- لا أعرف !

عم الصمت. شعر بأنهم تعمدوا ألا يعرف عنهم شيئاً أو عن المكان الذى يوجدون فيه، أو عن أى مخرج له من هذا الموقف. تحرّج عن أن يسألهم من أنتم؟.. وما اسم هذا المكان؟.. وهل له علاقة "بكوم شحاتة"؟ لكنه لم يجرؤ.. استطاع فقط أن يسأل:

- أين سكان هذا الحى؟

قال أحدهم وهو يدخل الباب:

- تم تهجيرهم إلى مكان أفضل.

وعم الصمت.. توقع حدوث المجهول الذى انتظره منذ البداية.. ربما سيأخذونه إلى محكمة خاصة ثم يحكمون عليه بالإعدام أو بأى عقوبة على أى جريمة لم يرتكبها.. اقتربوا أكثر من بعضهم البعض وتلاصقت رؤوسهم وهم يتهامون.. هى المداولة قبل الحكم إذن!.. فكر فى الهروب.. لكن كيف؟ لا بد أن لهم عيوناً فى كل مكان.. خطر له أن يتذاكى عليهم لمعرفة نيتهم نحوه:

- كيف أخرج إلى طريق الكوبرى؟

فوجئ بالإجابة تأتيه على الفور من الرجل ذى البايب:

- عد من حيث أتيت، فلا طريق غيره.

ثم نهضوا متجهين إلى حجرة داخلية، بينما تقول السيدة التى دعتة للجلوس:

- لدينا اجتماع عاجل يخص مستقبل الحى.

قام مصطفى مذهولاً، مضى يتخبط فى المتاهة بين الدروب المظلمة.. هى النهاية إذن! وهم يعرفون ذلك جيداً.. لا سبيل أمامى للخروج.. ما لم يصادفنى أى بصيص ضوء قد يقودنى إلى الكوبرى.. وإلا فقد نفذ حكمهم علىَّ بالهلاك.. بغير محاكمة.

نقطة صغيرة.. قرب السماء

(1)

ما لون السماء وأنت تقف فوق قمة الجبل عند أقرب نقطة إلى سقف الكون؟ إنها بلا شك تتلون بألوان شتى تبعاً لتغير الفصول ومواقيت اليوم، مثل أى سماء فى العالم، لكنها من فوق قمة "فلولى" تتخذ ألواناً عجائبية، بين ألوان الذهب والماس والياقوت والمرجان والزربرد والبازلت، تتبدل ليس بين الصباح والمساء والليل والنهار، بل بين لحظات وأخرى مع تقلبات الجو.. و "فلولى" هو إسم قرية صغيرة لا تكاد ترى من سفح أعلى جبل فى الجزء الألمانى من سويسرا، وقد اتخذت اسمها من اسم البرغوث، حسبما ذكر لى أحد أبناء المنطقة فى مستعمرة الفنانين المدعويين للإقامة بضعة أسابيع والرسم فى القرية، كناية عن ضآلة حجمها، الذى كبر بوجود الفنانين فيها كثيراً حتى أصبحت مقصداً للسائحين.

كان الجو شديد البرودة هناك فى أوائل شهر سبتمبر، وأنا أمارس رياضتى المعتادة قبل غروب كل يوم، بالتمشية وحيداً فى دروب الغابة الخالية التى يكتنف الصمت أشجارها الشبحية المتراسة باستقامة، فاستشعر دُنُوَّ لحظات الإلهام مع اقتراب ساعة الغروب، وأتأمل السماء وهى تشتعل بضوء برتقالى مبهر يضعنى فى حالة اقتراب حميم من السقف السماوى وأنا امترك الكون جميعه من تحت أقدامى، وأتأمل هطول دُذْف البَرْد الأبيض الهش وهى تكسو رويدا قمم الأشجار ومساحات الحشائش والممرات، وأراقب السيدات العجائز وهن يقمن بنزهة مع كلابهن الفرحة بالحرية وهى تتقافز وتحاول الإفلات من سيورها الجلدية فى أيدي تلك السيدات المسنات اللائى يمثلن الغالبية العظمى من سكان القرية.

مع مجموعة الفنانين تكتمل اللمة فى قاعة الطعام، مبهجين بروح الجماعة وتنوعها وأمسياتها المرححة حول العشاء الذى نحضِّره بأنفسنا.. تختلف الأذواق واللغات والثقافات بيننا نحن السبعة، لكننا نتفق فى النشوة عندما نستمع إلى أغنية لأحدنا، أو

نضحك على نكتة من آخر، أو ننبهر بحكاية شعبية من ثالث، لنبدأ يومنا فى الصباح بوجوه مختلفة تقف أمام حوامل الرسم صامته بأقنعة من الجدية الصارمة، عسى أن يفيض غيث الإلهام برؤية فنية تستلفت الأنظار.

تضم المجموعة أربعة رجال من أجيال مختلفة، يمثلون سويسرا ويوغوسلافيا وبولندا ومصر، وثلاث سيدات تمثلن الولايات الأمريكية ويوغوسلافيا وإيطاليا، وكانت الأخيرة (ناتالى) أكثرهن شبابا.. ورغم حواجز اللغة فقد كانت الانجليزية الركيزة وتعبيرات الأيدى ومرايا العيون كافية للتفاهم والتلاقى بيننا على مساحات مشتركة.

فى هذه الليلة حكيت "لناتلى" بعد العشاء تأملاتى فى الغابة بإحساس ابن النيل والصحراء، محاولاً إضفاء صفات أدبية على الطبيعة.. كانت هذه أول مرة تشاركنا العشاء ولا أعرف السبب. أبدت إهتماماً شديداً قائلة أن ذلك هو هوايتها أيضاً. دعتنى لصحبته فى جولتها غدا قبل الغروب، رأيت هوايتها تلك متوافقة مع طبيعتها الميالة للانطواء، حيث تبقى فى حجرتها أوقاتاً طويلة فترة اندماجنا صباحاً فى الرسم المشترك. شئ ما يجذبنى إليها، لعلها الغمازتان الطفوليتان على خديها حين تبتسم، لعلها لمعة عينيها الخضراوين بتعبير الدهشة والذكاء حين تضحك. لعلها قلة كلامها إلى حد الندرة مما يضىء عليها نوعاً من الغموض. لكننى لم أُحمِل دعوتها لى أكثر مما تحتمل، مدركاً أن سلوكها التلقائى يتسق مع ثقافتها الأوروبية البسيطة.

(2)

تفتحت شهيتى للرسم بعد أيام من الحيرة والبحث عن حافز للإلهام، فلم تفلح كل روعة مناظر الطبيعة فى إثارتى بعد أن استهلكتها الكروت السياحية المنتشرة فى كل مكان ممثلة بمناظر الغابات والبيوت الصغيرة ذات الأسقف القرميدية المكسوة بالجليد، فى الصباح شرعت فى رسم لوحة زيتية كبيرة، أستعيد فيها أجواء مصرية من الواحات ببيوتها الطينية المتوارية من هجير الشمس والغزاة، وهى تتلاصق محتمة ببعضها البعض كجسد واحد، وقرب انتهائها فوجئت بأنها تخلو من أشعة الشمس التى كانت

بطلا فى لوحاتى السابقة، وحل محل الضوء المبهر جو أزرق حالم تتجول خلاله العين مناسبة فيما يشبه عالماً أسطورياً، وثمة جسم أثيرى لفتاة برداء أبيض تطير فوق البيوت كفراشة أو روح هائمة.. أذلك من تأثير فلولى؟

توافد زملائى الفنانون لمشاهدة اللوحة. لم أسمع كلمات انبهار أو إعجاب، لكنى لاحظت طول فترة وقوفهم وتأملهم للوحة بدهشة، ثم سؤالهم عما إذا كان المكان الذى أصوره حقيقياً، وشبّه "هوسن" البولندى جو اللوحة بالفنان شاجال، وقال البروفيسور "ألكسندر فتش".. إنها حلم يتخطى الزمان والمكان.. وقالت "دايانا" الأمريكية أنها تود لو أذعوها إلى مصر لزيارة الواحات حتى تصورها فوتوغرافياً لأن الكاميرا هويتها الثانية. إنتبهتُ إلى أن "ناتالى" لم تحضر. ترددتُ فى دعوتها، ثم قلت لى نفسى: سوف أسألها عند الغداء إذا كانت تود رؤيتها.

لم تحضر على الغداء. أنتابنى القلق عليها وعلى نزهة الغروب فى الغابة التى سيحل موعدها بعد ساعتين، ظللت جالساً فى قاعة الطعام حتى انتهى الجميع وغادروها إلى حجراتهم. أخيراً رأيتها قادمة وهى أكثر إشراقاً مما كانت.. قالت بوجه متهلل قبل أن أسألها:

- أكتشفْتُ كنزاً !

وراحت تحكى بحماس عن بناء قديم مهجور رأته فى الجوار، وعن غرابته الأسطورية، وأبدت رغبتها فى أن نذهب إليه معاً صباح الغد.

- وجولتنا فى الغابة؟

اعتذرت عنها لشعورها بالتعب بعد رحلتها اليوم، وقد نقوم بها فى يوم آخر. رحبتُ برحلة الغد مع شعورى بخيبة الأمل لتأجيل نزهة اليوم التى اكتشفْتُ أنها تعنى الكثير بالنسبة لى، انتظرتها حتى انتهت من غدائها الذى تناولته بشهية غير معتادة لها، ودعوتها لرؤية لوحتى الجديدة.

ظلت واقفة تتأملها فى صمت معقودة الذراعين على صدرها لمدة طويلة مُضَيِّقَةً عينيها، تمنيت أن ألنقط صورة فوتوغرافية لها فى هذا الوضع، بالقلنسوة المخططة على رأسها حتى تغطى الجبهة، والجاكت الثقيل "الكاروهات" (أسود فى برتقالى)، إنها تصلح كموديل "لماتيس" فى هذا الوضع، لكن مع طول صمتها ووجهها المقطب شعرت بالقلق. سألتها:

- ألم تحبها ؟

انفجرت أساريرها وانتشر اللون الوردى على وجنتيها وهى تبتسم ابتسامة كبيرة أظهرت غمازتيها، وعيناها تلمعان بضئ أخضر، ليكتمل بهاؤها مع اجتماع الحسينين، وفجأة طبعت على خدى قبلة سريعة وقالت:

- هذا رأيى !

وانطلقت تجرى إلى حجرتها فى شقاوة، وعند الباب وقفت قائلة: تلك الفتاة الطائفة فى اللوحة.

- ماذا بها ؟

- إنها أنا ! .. أنت تعرف!.. أراك غداً.

تجرات متجاوزا حياىى وقلت !

- لم لا نلتقى وقت العشاء ؟

- لن أستطيع. سأقوم ببعض الاتصالات التليفونية ببلدى.. عشاءً شهياً لك !
تحسست مكان القبلة، أسفت لأننى لم أحلق ذقنى اليوم، لكن روحى كانت هناك.. طائفة مع الفتاة فى لوحتى !

(3)

فى الصباحت جالت إلى قاعة الطعام متأخرة.. جلست صامتة بعد إلقاء التحية همساً، وعيناها منتختان من عدم النوم أو من أثر بكاء. قمت وأحضرت لها الإفطار التقليدى وفنجان القهوة.

استمرت فى صمتها ناظرة إلى أصابعها وهى تعبت بخاتمها دون أن تنتبه. ثم بعد لحظات - وكأنها لاحظت أخيراً ما أحضرته لها - قالت: شكراً ! وعادت إلى الصمت، حتى سألتها أحد الزملاء بالفرنسية عن شئ فأجابت بكلمات مقتضبة لم أفهم منها شيئاً.

بدأ القلق ينهشنى. توقعت أن تعتذر عن الرحلة. فوجئت بها تسألنى.

- أنت جاهز ؟

- بالطبع.. وحضرت دفتر الرسم وبعض الساندوتشات.

لم تعلق، وقامت فى صمت، ثم غمغت وهى ذاهبة:

- دقائق وألحق بك.

بخلاف دفتر الرسم، كنت قد وضعت فى جيوب حقيبتى الصغيرة التى تعلق على الظهر - بعيداً عن الساندوتشات - عدة "البومات" للوحاتى وصورى الشخصية، وحرصت ألا تتضمن صورى العائلية مع زوجتى وإبنى.

سرنا متجاورين، نصد ونهبط بين دروب القرية الوداعة. كانت الشمس مشرقة على غير المألوف، والأزهار متفتحة بألوان مبهجة فى كل مكان، لا تزال "ناتالى" على صمتها. أحاول فتح موضوعات مختلفة دون جدوى.. نبهتها فجأة فى مرح: هاى!

التفتت إلى مندهشة وعيناها تتساءلان. قلت:

- أين ذهبت ؟

توقفت مبتسمة فى خجل وأمسكت بيدي قائلة: أنا آسفة !

كانت يدها باردة جداً. سحبته بلطف. وددت لو كانت تركتها فى يدي.
استدعيت كل ما أملك من شجاعة حتى أستعدت يدها فى يدي الخالية من دفتر الرسم.
قلت:

- أظنك بحاجة إلى بعض الدفء !

سارعت بسحب يدها ووضعته فى جيب سترتها ومشت مطرقة فى صمت.
شعرت بأننى تورطت فى فعل مراهق، تولانى الندم مع غضب لا أعرف مبعثه. فكرت
أن أسألها عما يضايقها هذا الصباح، فإذا بها تسبقنى:

- الأخبار فى روما ليست طيبة.

توقفت عن السير متسائلاً بعينى، فواصلت:

- صديقى...

أنتظرت لحظات حتى تكمل. قالت:

- لا أعرف!.. أنا لا أفهمه.. حقيقة أنا لا أفهمه!.. كنا قد اتفقنا - أنا وهو -
على إجازة من بعضنا البعض أفضيها هنا، وعندما أعود تكون الأمور أفضل.

برغم شعورى بالصدمة لكونها مرتبطة بشخص آخر، خامرنى شئ من الارتياح
لحدوث أزمة بينهما، سألتها:

- وماذا حدث ؟

- لا أعرف.. يقول إن علينا أن نعيد النظر فى العلاقة.

- هل تحبينه ؟

قالت بعد تفكير:

- يبدو أن هذا لا يكفي. هو نفسه قال ذلك. قال إنه سيظل يحترمني، لكن هذا
- كما يقول - لا يعطيه الحق في تركه لي أستمر في حبه وهو غير متأكد من مشاعره
نحوى.

- كم مضى على ارتباطكما ؟

- ثلاث سنوات. كنا في غاية السعادة.

- ثم ؟ ...

- لا أدري. فجأة بدأت الخلافات الصغيره تكبر .. والتسامح يقل .. وهو يهرب.

- وأنت ؟

- مصدومة!.. كيف؟!.. لا أستطيع أن أتخيل الحياة بدونه.

فكرتُ: أهي نفس قصتي لكنها تحدث معكوسة؟

واصلتُ السير بجوارها صامتاً. لا أجد أى كلمات تخفف عنها، بدأت تبكى وهي
تحاول إخفاء وجهها عنى فيما تمسح دموعها. قلت أخيراً:

- لا بأس!.. إنها أمور تحدث كل يوم على أية حال.

توقفتُ واعترضت طريقي وظلت تحدِّق في وجهي بعينين دامعتين ووجه احمرّ
حتى يكاد ينفجر منه الدم:

- إذن لا معنى لكل ما كان بيننا؟.. هكذا؟.. بهذه البساطة؟

تولنتى فجأة حالة من الغضب. وجدنتى أقول بقسوة ضاغطاً على الحروف:

- نعم.. هكذا بهذه البساطة.. أنت قضيت معه ثلاث سنوات.. أليس كذلك؟..

أنا قضيت معها عشر سنوات.. ولدينا طفل عمره الآن خمس سنوات.. ثم حدث مثل ما
حدث معك.

هدأت قليلاً وقد أخذتها المفاجأة ثم قالت:

- أنت تركتها ؟..

- لا.. بل هي.. أصرت على الانفصال.

- وانتهى كل شئ ؟

- نعم.. وسافرت ومعها الطفل لتعمل خارج البلد.. لم أرهما منذ سنوات.

ظللنا واقفين فى مواجهة بعضنا البعض لكن وجوهنا منكسة إلى الأرض لا يجد
أحدنا ما يقوله. أخيراً قالت هامسة: أنا آسفة !

عاودنا السير صامتين. فجأة توقفت قائلة:

- أتعرف؟.. نحن شبيهان. لكننا نستحق أفضل من هذا.. أليس كذلك؟

قلت بعد صمت طويل: إنها الحياة !

أمسكتُ بيدي بحرارة وعيناها فى عيني.. عيناها كنبعين عميقين من خضرة غير
أرضية.. أغرقانى بحمام من البراءة.. قالت بحميمية:

- كم أنت إنسان رائع !

(4)

كُنَّا قد اقتربنا من المكان المقصود. استعادت شيئاً من طفولتها وهى تجرى
مهللة، بقدر سعادتي كنت مندهشاً لسرعة تقلباتها، تشير إلى مبنى خرب منزوع النوافذ،
أقرب إلى عنبر كبير بُنى بمواد سابقة التجهيز، له سقف جمالونى من القرميد. لاحظت
أنه بلا باب. سألتها عن ذلك. أشارت إلى فتحة كبيرة نُزعت الدرجات التى كانت تؤدى
إليها، مما يستلزم القفز مرتين للدخول: مرة من الخارج إلى حافة الفتحة، وأخرى من
الفتحة إلى داخل العنبر. سبقْتُها إلى القفزة الأولى وجلسْتُ على الحافة. أخذتُ بيدها
وجذبتها حتى جلست بجانبى، وقفزتُ القفزة الثانية إلى الداخل. وضعتُ أحمالى على

الأرض ثم تلقيت ناتالى بيديّ الاثنين. شعرت بقربها الحميم منى وهى تضحك فى جدل كطفلة متوردة الوجه، لكن لم يخطر لى قط أننا جسدان لرجل وأمرأة بنوازع حسية.

رحنا نجوس فى المكان الموحش المهجور. نسمع صوت أنفاسنا اللاهثة - مليئين بالرهبة والخوف والإثارة. نبحت عن شئ لا نعرفه. ها هى نهاية عبثية لحياة كبيرة شهدت أحداثاً مجهولة.. وها نحن فنّانان من أبناء القرن الحادى والعشرين يمرحان فوق ذكريات قرن مضى ! رجل فى الثامنة والثلاثين وفتاة تصغره بعشر سنوات.. وحب مفقود لكليهما.. وحب آخر يبحثان عنه وسط ركام أثر من الماضى المجهول.. تساءلنا عن وظيفة المبنى فى ذلك الماضى.. وجدنا بقايا منه تشى بهذه الوظيفة: ماكينات خياطة عتيقة الطراز، متهالكة صدئة، هناك سلم داخلى صعدهنا إلى دور ثان فوق جزء من العنبر.. على المناضد المتهالكة وفوق الأرض صور لأزياء عسكرية بداخل براويز مهشمة.. كتالوجات ممزقة بها تصميمات وباترونات لأزياء ممرضات ورجال إسعاف عسكريين.. دفاتر حسابات وقوائم وخطابات توحى بأنها "طلبيّات" توريد لأصناف إلى الجبهة. حاولنا قراءتها فوجدناها مكتوبة بالألمانية التى لا يعرفها كلانا.

أنطلقنا نبحت عن أية أشياء قد يكون لها معنى، وعندما يعثر أحدنا على شئ يسرع إلى الآخر ليريه إياه فى انتصار. حاولت الاحتفاظ ببعض الأشياء مُمنياً نفسى بأنه يمكن اعتبارها وثائق تاريخية أزهو بامتلاكها فيما بعد. أعترضت ناتالى قائلة:

- ليس من حقنا.. هذه أشياء تخص التاريخ.

- تاريخ من ؟

- أصحابها.

- من هم؟ .. وأين هم؟.. لقد أهملوها لأكثر من ستين عاماً.. وتركوها مهجورة

ومتاحة مجاناً لكل عابر سبيل.

- حتى ولو !.. لكنها ليست من حقنا.

جلسنا على طرف السقف ودلينا أرجلنا من بين أعمدة الدرابزين فى الفراغ المطل على الدور السفلى للعنبر، ورحنا نؤرجح أقدامنا فى الهواء كطفلين. قلت:

- فى بلدى يمكن لمثل هذا المكان أن يوفر العمل لمئات العاطلين.. هذا لو لم يحتله الإرهابيون ويحولوه إلى مصنع للمتفجرات !

- بقاؤه بحالته تلك يعنى أنه لا حاجة لأحد إليه.

- تقصدين أن الذى تعيشينه هنا مجتمع بلا بطالة.. بلا إرهاب؟

- أقصد أنه مجتمع بلا قلب.. بلا أمل !

لم أجد علاقة بين كلامى وكلامها.. أدركت مدى عمق الجرح الذى أحدثته صديقتها بداخلها.

أردت أن أخرجها قليلاً من حالتها كى لا تعود إلى الاكتئاب، قلت:

- ومع ذلك فإن هذا المكان استضافنا اليوم بكرم زائد.. ألا يكفى ذلك؟

ووضعت يدى برقة على يدها، فسحبته بطف. شعرتُ بحرج شديد، أردت التغلب عليه فقممت من جوارها ونزلت السلم إلى حيث تركت أشياءى. فكرت أن أريها صور ألبوماتى ثم تراجع، تذكرت الساندوتشات فأخذتها وعدت بها إليها وأنا أجلس بجانبها، لكنها اعتذرت متعلقة بأنها ليست جائعة، ثم ابتعدت عنى قليلاً. وقد استعادت قناع الصباح المكتئب.

نزلتُ وبدأتُ الاستعداد للرحيل. انتظرتها عند باب الخروج كى أساعدها فى القفز، لكنها فعلت ذلك بمفردها من الداخل ثم قفزتُ إلى الخارج وحدها.

فى طريق العودة سألتها:

- هل فعلتُ شيئاً ضايقك؟

سارعت قائلة: لا لا.. إطلاقاً.. أنت شخص لطيف.

وعادت إلى الصمت، ثم قطعت فجأة ووجهها في الأرض: أنا آسفة !

- لماذا ؟

- سامحنى.. لن أستطيع !

واصلنا السير صامتين حتى مستعمرة الفنانين لا نسمع إلا صوت الجليد المجروش تحت أقدامنا، وثمة طيور تنتحب فوق أشجار بعيدة. كانت السحب الكثيفة تعقل الشمس فتجعل المساء يحل قبل موعده ساحباً أستار الظلام خلفه. عجزت عن رؤية السماء من ورائه. شعرت بأنها تنطبق فوق روحى.

(5)

انتظرت أن أراها على مائدة العشاء فلم تحضر. شعرت بالإهانة. ترددت كثيراً بين أن اتجاهلها تماماً وبين أن أذهب إلى حجرتها للاطمئنان عليها. غلبنى كبريائى فاخترت الأولى. قلت لنفسى إننى سوف أراها بالضرورة فى الصباح، لكنها لم تحضر على الإفطار. ازداد شعورى بالإهانة. حقا إنها أوضحت لى موقفها منى بما يكفى، فلن تستطيع أن تجعلنى أحل محل صديقها الذى خذلها، لكننى لم أطلب منها ذلك. كل ما هناك أننى ظننت أننا أصبحنا صديقين، وللصداقة حق عليها، وإلا فما معنى كل ما أبدته نحوى من مشاعر دافئة؟!..

عدت ففكرت أنها قد تكون مريضة، ومن واجب الصديق الاطمئنان على صديقه، رأيت أن للفكرة منطقيتها، فضغطت على كرامتى وذهبت إلى حجرتها وطرقت الباب عدة مرات، فلم أتلق إجابة، ذهبت إلى المسئول عن المستعمرة وسألته عنها، فقال إنها سلمت الحجرة فى الصباح الباكر وغادرت، حيث اعتذرت عن البقاء لاضطرارها للسفر إلى بلدها لظرف طارئ.

جلست أمام لوحتى أحاول أن أخفى جرحى، قال دون كيشوت: شفائى معركة ! أعرف أن شفائى دائماً هو لوحة جديدة!.. خطرت لى فكرة هذه اللوحة. على أن أذهب

ثانية إلى مصنع الملابس العسكرية. تذكرت الكشف المكتوب بالألمانية "لَطَبِيَّة" ملابس الجنود على الجبهة، طراً في ذهني سؤال: هل كان مسئولو وعمال المصنع يهتمون بمعرفة كم عدد القتلى ممن ارتدوا الملابس التي صنعوها.. وكم عدد من قام هؤلاء بقتلهم؟!.. لكن.. أكان ذلك ذنبهم؟

بحثت عن ألبوم الصور، تصفحته قليلاً ثم أغلقته عند صورة أم إبنى.. تخيلتها في صورة واحدة مع ناتالى.. تُرى.. كيف ستبدوان في الزى العسكرى؟

الطريق إلى مطاطه

(1)

وقف فنانو "السبوزيوم" بالقرب من شاطئ البحر في انتظار الميكروباص. كانوا ثمانية بين رسام ونحات، منهم اثنان فقط من العرب: حازم المصرى وعلياً التونسية، والباقون فرنسيون وإيطاليون بينهم امرأة واحدة. نسائم الصباح المنعشة تداعب خد حازم برقة، فيما تداعب خصلات شعر علماً بنزق، فتشيطانها ولا تقلح محاولاتها المستمرة للسيطرة عليها بيدها، رفعت نظارتها الشمسية الكبيرة وثبتتها فوق الشعر الهائج الذى أصبح أكرت بسبب الرطوبة.. تأمل حازم - لأول مرة عينيها السوداوين محددين بكحل كثيف، وأشعة الشمس القوية تضيء جانباً من وجهها وتعكس الظلال على الجانب الآخر فتكسبها غموضاً، فكر أن يخبرها بأنه يود أن يرسمها، ثم أجّل ذلك إلى وقت آخر.. سألها:

- كم تستغرق الرحلة من المحرس إلى مطاطة؟

- حوالى ساعتين.. لكنك لن تشعر بملل.. فى الطريق ما يغرى بالمشاهدة..
وسنعود قبل المساء على أى حال.

وأضافت ضاحكة وهى تغمز بعينها المغمورة فى الظل:

- ثم إننى سأكون بجانبك !

شكرها بابتسامة قائلاً باللهجة التونسية:

- يعيِّشك !

ضربت كفه بكفها على الطريقة المصرية ضاحكة، فلمعت أسنانها الناصعة:

- ملعوبة يا دكتور !

لم يفته تلميحتها بأنها ستكون بجانبه، كما لم تفته ملاحظة اهتمامها الخاص به منذ مجيئه للاشتراك فى السمبوزيوم قبل أسبوع، لكنها تبدى هذا الاهتمام باعتباره إعجاباً بمصر التى تعشقها.. فقد تربت على الأفلام المصرية والأغنيات المصرية واللهجة المصرية والنكتة المصرية وكل شئ مصرى منذ طفولتها، وحلمت دائماً بالسفر إلى مصر.. وها هى مصر كلها قد جاءت إليها!.. هكذا قالت له مرة.. وبالأمس زينت له أن يصحبها مع المجموعة فى هذه الرحلة. لم يكن متحمساً لذلك لرغبته فى إكمال الجدارية التى بدأها على جدار أحد مبانى المدينة.. فهذا هو الهدف أساساً من مجيئه، وتلك فرصة طالما حلم بمثلها منذ زمن طويل. قالت له: لكنك لن تتدم.. بل ستشكرنى.. فلن تجد تونسية حسناء مثلى لتكون مرشدك الخاص فى هذه الرحلة. تقول لك ما لن تسمعه من شخص آخر.. أما جداريتك فلن تغادر الحائط وتطير، فستجدها فى انتظارك!.. فى النهاية قال مستسلماً باللهجة التونسية: لا باس!

كانت قد لاحظت مبكراً - بجهاز استشعار حواء - أنه غير مرتبط، دون أن يتحدث عن ظروفه الاجتماعية أو ظروفها، وأدرك أنها فى مرحلة عمرية دقيقة حتى تلحق بقطار الزواج، فهى فى الخامسة والثلاثين على الأقل، وهو على مشارف الخمسين، لكن ذلك الفارق لا يمثل مشكلة تحول دون ارتباطهما. ربما فكرت على هذا النحو، لكن المشكلة فيه هو، بالرغم من إعجابه بها وانجذابه إلى شخصيتها المرححة المتدفقة بالحيوية التى لا تعرف اللف والدوران، على عكس بنات بلده.. المشكلة أن حياته لا تزال مرتبكه بعد عامين من الانفصال. فما أن يشرع فى ارتباط جديد حتى يطل فشل العلاقة الزوجية السابقة كالشبح، وقد تملكه يقين بأن فى داخل كل امرأة شيطان كشيطان زوجته، فما بالك بعلياً التى لا يعرف عنها أى شئ!.. ما يحتاجه الآن بشدة هو الاستقرار نفسياً ومادياً، خاصة مع ما يتكلفه شهرياً كنفقات لأولاده، ولا يستطيع مرتبه بالجامعة الوفاء بالتزاماته الثقيلة، كما أن توقفه عن إقامة معارض للوحاته، أدى إلى انقطاع أى دخل يأتيه من فنه. لذا فإن ما يعقد عليه الأمل اليوم هو الفن.. فهو

وحده القادر على تهدئة مشاعره القلقة، وعلى أن يعيد إليه التوازن والثقة والهدف، فوق الاستقرار المادى.

(2)

الميكروباص الأبيض يمضى بحذاء الشاطئ وهو يقل فنانى السمبوزيوم، ماراً بالتماثيل والأعمال الفنية المركبة فى الخلاء التى قام بتنفيذها فنانون من مختلف الدول عبر السنوات الماضية فوق "البلاج" العريض على امتداد مدينة المحرس الراحية للمهرجان السنوى، حيث اجتمعت فى هذه الأعمال مختلف الأساليب الفنية من الواقعية حتى ما بعد الحداثة، مروراً بمذاهب التجريد والتكعيب والسرالية.

احتلت عُلياً - بمجرد وصول السيارة - الكرسيين الأماميين خلف السائق لجلوسها بجوار حازم، وبدأت على الفور تفى بما وعدت بأن تكون مرشدته السياحية الخاصة طوال الرحلة. فحدثته عن تاريخ المحرس التى كانت قلعة الدفاع الأمامية "للمرابطين" فى أقصى نقطة للحدود التونسية المطلة على البحر المتوسط فى مقابل الشواطئ الأوروبية.

وعندما دخلت السيارة الطريق الصحراوى نحو صفاقس راحت تحدثه عن الشواهد الأثرية التى يمرون بها فى الصحراء؛ بقايا القصور البدائية المدفونة فى الرمال.. البنايات المهجورة المائلة إلى الورا كأبراج بابل تتصاعد فى أدوار عدة، تتخللها مدارج وفتحات وممرات ملتوية.. الكثبان الرملية تصعد وتهبط فى تكوينات جمالية مثيرة وتبتلع كل شئ - حتى النخيل - فلا يبقى فوق الرمال حياً غير الجريد الأخضر. تذكرت عُلياً شيئاً فقالت بدهشة:

- غريبة!.. يهياً لى أننى رأيت بعض لوحات لك على النت تشبه هذه الأجواء!

- فعلاً هى لوحاتى.. استوحيتها من بعض الصور الفوتوغرافية المنشورة دون أن أعرف أين مكانها، رأيتها خيالاً وإلهاماً كعالم أسطورى.. وها أنذا اليوم أجد الخيال حقيقة ! لكنها فى لوحاتى مختلفة ولا شك.. أليس كذلك ؟

وافقته بحماس قائلة: تماماً.. حين رأيتها ذكرتني بالفنان دى كيريكو.. ألا توحى بذلك؟

- ربما.. أنا أحبه على كل حال.. كلانا يبحث عن شئ مجهول.. أسطوري.
- لكن شتآن ما بين ابن الغرب وابن الشرق.. هناك.. الرؤية بالعقل.. وهنا.. بالروح! ضحك قائلاً: أنت ناقدة أيضاً!
- أنا فنانة وبس:

- أين لوحاتك إذن؟.. وعدتني أن تريني إياها.

سارعت بإخراج "الموبايل" وكأنها كانت في انتظار السؤال. اقتربت منه حتى التصقا ليتمكن من رؤية اللوحات على الشاشة الصغيرة. كان يتوقع شيئاً مختلفاً، ربما تحت تأثير حديثها عن مشاركتها في أحداث الثورة التونسية، وعن أنها لا تزال ناشطة سياسية مع جبهة اليسار، وعن دور الفنان في قيادة الجماهير ومدتها بالوعي، لكن ما يراه ينتمى إلى التجريد الخالص في أوروبا تحت مسمى "التجريدية التعبيرية" بدون تميز خاص.

سألته عن رأيه في قلق.. قال:

- مزيان!.. لكن.. أين ما قلته منذ قليل عن روح الشرق؟

- موجودة.. ألم تحس بها؟.. كاندينسكى أبو التجريد الغربى هو مؤسس الروحانية فى الفن.

- نعم.. على طريقته.. فأين طريقتك الخاصة؟.. أرى هنا أعمالاً أوروبية.

- الفن ليس له هوية.. هناك فن.. أو لا فن.

- لا فن بدون هوية.. أين هويتك؟.. أين علياً التونسية؟.. لا أقصد المظاهر والفلكلور.. بل أقصد الإحساس وخصوصية الأسلوب.

شعر بخيبة أملها وهي تصمت، ثم تبتعد عنه قليلاً.. ثم تقول:

- سامحنى يا دكتور!.. هذا كلام قديم جداً.. لعلك تريد أن تقول: أين الثورة؟

لكن لا ينبغي للفنان أن يتبع خطى الثورة.. بل العكس.. على الثورة أن تتبع الفن.. لأنه يقود إلى الحرية.

أدرك أن المناقشة لن تقضى إلى شئ، لقد خاض مثلها مراراً بغير طائل، فى الوقت الذى استشعر فى كلامها قدراً من الادعاء تغطى به تواضع موهبتها، فغير لهجته وهو يثنى على أسلوبها الجريء وألوانها المتناغمة، مؤكداً أنه ليس ضد التجريد بل يراه قريباً للموسيقى.

أعادت كلماته الثقة إلى نفسها والحيوية إلى ملامحها والعفوية إلى تصرفها، فاقتربت منه ثانية وهو تقول معاينة:

- إنك لا تستطيع أن تنسى أنك معلم فى الأكاديمية يا دكتور !

(3)

حدثته عن البربر ونسائهم فى مطماظه اللاتى يعملن كل شئ: يرعين الأغنام ويصنعن الزبد والجبن، ويطحنن ويخبزن ويربين الأطفال وكل شئ، ثم ينتظرن الرجال فى صبر ويكتسبن الحكمة من الصبار فى الصحراء، إذ يحيا على قطرات الندى.

- والرجال.. أين هم؟

- الطوارق؟.. هم الملتحون البواسل، ساهرو الليل كالأشباح يجوبون الصحراء، هناك بعيداً، يؤمنون الحدود من إغارات قُطَّاع الطرق، ويكسبون النقود من تجارة الإبل والأغنام، ويعودون بعد شهور إلى ذويهم فى الكهوف داخل بطن الأرض، فلا يعرفون من العالم شيئاً خارج محيط الصحراء وحكمة الأجداد.

يزداد شعوره بالحميمية نحوها، أعترف بأنها ليست بالتفاهة التى تصورها عليها من قبل، تعددت مرات التقاء أيديهما صدفة أو (كأنها صدفة) تلقى رسالتها الضمنية

باستعدادها للزواج منه، لم يستطع القطع بإجابة واضحة، شعوره يتراوح بين الإقبال والنكوص، نكوصه لا يأتي من ظروفه وحدها، بل كذلك هناك خوفه من شخصيتها المقتحمة بجرأة، وبعض الادعاء الثورى الأجوف، لقد عرف كثيرات من هذا النوع عبر السنين، وما أن يدخلن بيت الزوجية حتى يختلف كل شئ عن علاقتهن بالسياسة والثورة!.. عليه إذن ألا يحمل همها من هذه الناحية على الأقل!

- من حَقك أن تسألنى عن حياتى إذا كنت تريد.

هكذا قالت ببعض الخجل والتردد، لعلها تفتح الطريق كى تعرف هى.. ما تريد عنه! استمع منها إلى سيرة عادية لإحدى بنات الأسر المتوسطة، وأنها عاشت تجربة ارتباط انتهت سريعاً من جانبها لعدم التكافؤ الفكرى، مؤكدة أن هذا الجانب هو الأكثر أهمية بالنسبة لها.. صمتت فترة حتى استطاعت أن تسأله:

- وأنت ؟

وجدها فرصة لاختبار مدى تمسكها به، فحكى لها بصراحة أن له ثلاثة أبناء من زواجه الأول أكبرهم فى الجامعة، أما زوجته الثانية فقد تخطى لها عن شفته لأنه الذى قرر الانفصال، ويعيش الآن فى سكن مفروش مؤقت لأنه لا يقدر على شراء شقة خاصة فضلاً عما يتحمله من نفقات شهرية لأبنائه، وهذا ما يجعله يقرر أن يجعل الفن قضيته الأساسية فى هذه المرحلة حتى تستقر أحواله.

لم تستطع إخفاء شعورها بالصدمة.. أخذت تتباعد تدريجياً بجسمها عنه، وتميل برأسها على زجاج النافذة سارحة بفكرها بعيداً.. ثم بدت وكأنها تستدعى النوم، فتغمض عينيها، وإن ساوره الشك فى أنها استغرقت فى النوم.

(4)

أمام الحفرة هائلة الاتساع العميقة تحت مستوى سطح الأرض وقف الفنانون فى ذهول. كانت غلياً تقف مع "ألبيير" الفرنسى تشرح له وللمجموعة بالفرنسية ما تعرفه عن

المكان وإن لم يفهم ما تقوله لعدم إلمامه باللغة، تقابلت عيونهما وتبادلا الإبتسام وهي مستمرة في حديثها بحماس كمرشدة سياحية، بدا له أن تلك هي موهبتها الحقيقية، تذكر ما قالته له قبل مجيئها بأنها ستكون مرشدته الخاصة في الرحلة، فكانت مجرد "بروفة" تدرّبتُ فيها على مهمتها التالية ! ، قادت المجموعة أثناء النزول إلى الحفرة ذات السلالم الحجرية بعمق عشرين متراً أو أكثر، وبجوارها "ألبير" خطوة بخطوة. قرر بعقل بارد وضع نهاية للأمر وكأنه لم يكن، مُعزياً نفسه بأن الأقدار أنقذته من مصير قد يجعله يندم بقية عمره. فكر مبتسماً بسخرية: إنه الربيع العربي.. زمن المقدمات الثورية والنتائج العكسية!

تأخر قليلاً عن المجموعة وهي تنزل إلى الحفرة. بدا له المشهد من أعلى كلعبة الدوائر وحبّات البلى الصغيرة التي يدرجها الأطفال نحو المركز عبر ثغرات تفتح على ممرات حلزونية. كان جو المكان مثيراً حتى استولى عليه وأنساه أي شأن آخر.

وقف في الفناء في باطن الحفرة يتأمل فتحة البئر المستديرة المسوّرة بحافة قصيرة. إنها في مركز الدائرة تماماً. رأى على جوانب الحفرة المنحدرة إلى الخلف بضعة مدرجات حجرية صاعدة بدرجات سلالم لا تحصى، إلى فتحات كأبواب القبور، وراء كل فتحة ممرات مظلمة بداخل الصخر، تقود إلى حجرات صغيرة على شكل أقبية منخفضة الأسقف. تذكر بغموض المقابر الفرعونية بالأقصر، درجة الحرارة فيها منخفضة كأن هناك جهاز تكييف في مكان ما.. فيما تصل في الخارج إلى أكثر من 40 درجة مئوية. في أحد الممرات التقى عُلياً بصحبة ألبير وحدهما، بادلها التحية بشكل طبيعي..

قالت ببراءة: اين اختفيت؟.. لم لا تنضم إلينا؟

غمغم بأنه ليس بعيداً عنهم، على بعد خطوات رأى بقية المجموعة منشغلين بالنقاط الصور أو مندمجين في لعبة "الأستغماية" بين الفتحات والممرات المتداخلة كبيت المرايا لكن بلا مرايا، يفاجئون بعضهم البعض في شبه الظلام إثر اختباء وبحث، ثم يضحكون في ضجة، بعد قليل رأى عُلياً وحدها مختفية خلف زاوية، أشارت بأصبعها

إلى فمها محذرة له من الكلام، وقف يراقب الموقف من بعيد، ظهر "ألبير" يتلفت باحثاً عن أحد، فجأة ظهرت أمامه وهي تصرخ كالأطفال، ثم تضحك مندفعة بين ذراعيه.

(5)

يتخذ مساراً خاصاً بعيداً عن الجميع، مسحوراً بغموض التجاويف الصخرية، مندهشاً لتيار الهواء الذى يتخللها، من أين يأتى الهواء وهم فى هذا العمق تحت سطح الأرض؟!.. فوجئ بعد قليل بنور وهّاج يفرش الممر ويضئ الحجرات المفتوحة عليه. تتبع الشعاع حتى اكتشف مصدره؛ كان يأتى من فتحة علوية صغيرة استطاع أن يرى رقعة من السماء من خلالها. تبين له وجود الكثير من هذه الفتحات عبر الممرات المختلفة. استعادت ذاكرته بيوت "الواحات الداخلة" بصحراء مصر الغربية؛ قرى بلاط، القصر، بشندى، بشوارعها المسقوفة ودروبها المتلوية، تظللها أسقف من جذوع النخيل وغصون الأشجار، تحمل حوائط طينية لحجرات تصل بين جانبي الطريق، تسكنها العائلات الممتدة من الأجداد إلى الأحفاد، فى تواصل زمانى ومكانى حميم، يقارنها حازم بهذه الكهوف الباردة فى بطن الأرض، وهي تشعرك بالعزلة عن العالم، فكر: كيف يتم التواصل هنا بين السكان؟ تذكر ما قالتها علناً عن اللغة الأمازيغية التى يتواصلون بها، وهي التى يناضل البربر للاعتراف بها لتأكيد هويتهم. يستدعى بخياله اشكالاً سحرية كحروف للغة مجهولة. يحاول أن يرسمها بإصبعه على الجدران مفترضاً ظهورها، وكأنه يشكل أول لوحة من مجموعة سوف يرسمها من وحي هذا المكان.

استدرجته الممرات والكهوف، فصال فيها وجال مشغولاً بفكرة (اللابيرانت)، بألف حجرة ومائة باب.. لاحظ بدهشة اختفاء السكان.. ليس هناك غير الصمت، فكر أن الدولة تقوم بتوظيف المكان كمتحف سياحى بعد إخلائه من ساكنيه، ثم تذكر - عند وصول الفنانين - أنه رأى امرأة بدوية قبل نزولهم إلى القاع وهي تسحب دلو الماء من البئر، كما رأى أخرى تطرز ثوباً بزخارف هندسية وهي جالسة قرب أحد المدارج

الصاعدة. فكر أن ذلك ربما كان جزءاً من البرنامج السياحي، أو من خيال طاف به واختمى !

لا يدري كم مر من الوقت؟.. وأين ذهبت عليًا والآخرين؟.. استبعد فكرة أنهم ذهبوا ونسوا أمره.. سوف يؤنبهم على ذلك بأقسى لهجة. حاول الخروج للبحث عنهم. كلما انتقل إلى نقطة اكتشف أنها هي نفسها التي كان يوجد بها منذ لحظات، أو ربما كانت تشبهها تماماً، بوسعه أن يرى السماء من الفتحات العلوية، لكنه يعجز عن الوصول إلى فتحة واحدة تطل على الفناء. تولاه الخوف وكأنه في كابوس يعجز عن الإفاقه منه.

فجأة رأى مصدرًا للضوء لا يأتي من أعلى بل من أسفل، تتبعه فوجد نفسه عند فوهة تطل على الفناء.. خرج ملهوفاً وتتنفس الصعداء غير مصدق أنه نجا. نزل الدرج الحجري الذي بدا أنه يتكون من مئات السلالم. توقع أن يرى عليًا والآخرين في انتظاره عند البئر. لم يجد أحداً. صعد إلى الجهة المقابلة حتى وصل إلى الحافة العليا للحفرة متوقفاً أن يرى الباص وبداخله الزملاء في انتظاره. تلفت في كل اتجاه بحثاً عنهم دون جدوى. رأى امرأة بدوية ترعى قطيعاً من الأغنام. سألها عن سيارة بيضاء بها بعض الأشخاص فأشاحت بوجهها. ظن أنها لم تفهم لغته لأنها لا تعرف غير الأمازيغية. قام بشرح ما يقصده بالتمثيل الصامت بيديه كأنه يقود سيارة. أشارت بذراعها تجاه الشرق. استنتج أن يكونوا قد توجهوا لزيارة مستعمرة أخرى تحت الأرض في الجوار. مضى إلى حيث أشارت البدوية وهو يسابق الوقت، وضربات قلبه تسبقها بإيقاع مارش عسكري. وجد أثراً في الرمال لعجلات سيارة ثم سرعان ما اختفى، وشمس الغروب تسحب خيوطها الذهبية رويداً من الأفق حتى يكتسى الكون بالشحوب. يندفع حازم مهرولاً وسط الصحراء الممتدة بغير نهاية باحثاً عن السيارة البيضاء، أو أية سيارة أخرى، بل أى كائن يتحرك !

الوزيرة خارج الخدمة

قصة قصيرة

بقلم: عز الدين نجيب

(1)

الساحة مترامية الأطراف، تُطَوَّقها - فى حلقة هائلة الاتساع - عدة صفوف من المقاعد تمتلئ بالجالسين، أتوا من شتى البلدان والقارات والأجناس، رجال ونساء، وجوه بيضاء وحمراء وسمراء وسوداء، مهرجان من الأزياء الوطنية التى تمثل دولهم المختلفة، لا يميز البصر ملامح الجالسين فى الجهة المقابلة من الحلقة لفرط بعد المسافة وكثرة الزحام، تبدو الساحة من فوق التل القريب - الذى تنتصب فوقه مجموعة من الخيام - كملعب لمصارعة الثيران فى إسبانيا.

جلس "صلاح الدين" فى الصف الأمامى على يمين وزيرة الثقافة السابقة فى حكومة قرغيزستان. سيدة خمسينية معتدلة القوام تحتفظ ببقايا جمال قديم، يستمع إلى حديثها المتقطع بالإنجليزية حول مهرجان التراث الشعبى القرغيزى والبطل الملحمى "ماناس" الذى نُظِم الاحتفال باسمه ودُعى إليه ضيوف من كل الدنيا، وقد حضر "صلاح" موفداً من وزارة الثقافة فى مصر ومسئولاً عن معرض الحرف التقليدية المصرية الذى افتتح بالأمس بمتحف لينين بالعاصمة "ألما - آتا" كنوع من التبادل الثقافى بين البلدين..

على يسار الوزيرة جلست سيدة شابة ذات جمال ملفت، قدمته إليها بإسمه وبلده لكنها فى تقديمها إليه لم تذكر إسمها، مكتفية بالقول بأنها صديقتها، فلم تُبد اهتماماً، وعادت إلى صمتها الذى التزمت به حتى نهاية الحفل، فبدت منطوية على سر دفين. قالت الوزيرة فجأة:

- هل تعلم أن لبلدنا علاقة بمصر ترتبط بتاريخنا القومى ؟

شعر بالحرع لأنه قبل مجيئه لم يكن يعرف أى شئ عن قرغيزستان أكثر من أنها كانت إحدى الجمهوريات الآسيوية بالاتحاد السوفيتى قبل تفكيكه وإعلان استقلالها، والشئ الوحيد الذى يذكره عنها - غير ذلك - أنها بلد الروائى رسول حمزاتوف الذى تُرجمت إلى العربية بعض قصصه فى السبعينيات. سألتها عن تلك العلاقة.. قالت:

- السلطان عز الدين أيبك.. زوج شجرة الدر.. إنه قرغيزى.. تم اختطافه طفلاً وبيع كملوك حتى وصل إلى مصر وأصبح قائداً ثم ملكاً.. أنت تعرف الباقي بالطبع!
- نعم.. وعلى فكرة.. كان محبوباً من الشعب المصرى.. لهذا أخفت شجرة الدر خبر موته عن الجميع حتى..

قاطعته: نحن نعرف كل تاريخه وقصة مصرعه، ونعرف حزن شعبكم عليه. لهذا نعتبر أن لنا فى مصر تراث عظيم.

سألها عن فترة عملها كوزيرة.. صمتت طويلاً.. بدت متحرجة بعض الشئ ثم قالت أنها حاولت إقامة مشروعات كثيرة.. سوف ترى اليوم إنتاج بعض ما أسسته من الفرق الموسيقية والراقصة لإحياء التراث، وهناك إصدارات الكتب وتشجيع الفنون والترجمة للانفتاح ثقافياً على العالم.. وأشياء كثيرة جداً.. ولأول مرة استقبلت وزراء ورؤساء وزارات من مختلف الدول، وعقدنا اتفاقيات معهم.. منها بلدكم.. وكانت الإمكانيات المخصصة جيدة جداً، لأن الاتحاد السوفيتى كان يعتبر الثقافة قوة استراتيجية كبرى، لهذا فإن موسكو كانت تهتم بتجربتنا كثيراً فى النهوض بالثقافة..

- والآن ؟

تتهددت بعمق، وظلت صامته حتى حسبها لن تتكلم، شعر بأنه ما كان يجب أن يسألها، ففى ذلك عدم لياقة، ثم إنه يلمس الإجابة بغير كلام، لكنها قالت أخيراً.
- على أى حال.. هم يعاملوننى باحترام، وها أنذا استقبلك اليوم كمثال!

تذكر رحلته معها فى السيارة الدبلوماسية فى "ألما - آتا" من الفندق إلى المطار ليستقلا الطائرة إلى هنا، كان رجال المرور يعطلون حركة السيارات عند تقاطعات الشوارع، مشيرين بعصيهم الضوئية الحمراء لوقف المرور حتى تمر سيارتهما كأى موكب رسمى.. عرف عند وصوله إلى السفارة المصرية أنها سترافقه، عملاً بالبروتوكول المتبع وهو قيام الوزير السابق المختص بمهمة الوفد الزائر باستقباله ومرافقته أثناء الرحلة، ولما كان صلاح هو "كل" الوفد المصرى، فقد كان الدور عليها كوزيرة سابقة للثقافة لتكون على رأس بعثة الشرف التى ترافقه.. وكم أشعره ذلك بالزهو، كونه مسئولاً مهماً يمثل دولته !

اختلس النظر إلى صديقتها الشابة وهى غارقة بداخل ذاتها، كان شغوفاً بالتعرف عليها، حاول فتح الحديث معها بسؤال عن نوع اهتماماتها الثقافية، تمتت ببعض الكلمات الروسية وهى تبتسم محرجة، أوضحت له الوزيرة باقتضاب أنها لا تعرف الانجليزية، ولم تشأ أن تترجم لها سؤاله.

(2)

بدأ المهرجان وشمس الظهيرة الدافئة تتعامد بلطف على الساحة. موسيقى آلات النفخ تتعالى بصخب، تدخل الراقصات والراقصون بأزياء تراثية مبهجة.. تابلوه البداية عن حفل زفاف بتقاليده الفلكلورية، ألوان الأزياء وتصميماتها تعكس ترف الثقافة العثمانية، كون هذه المنطقة هى الأقرب جغرافياً للدول الناطقة باللغة التركية وتدخل معها قرغيزستان فى "كومانولث" ثقافى.. فى مقدمة موكب العرس يظهر والدا العروس وصاحباتها، ثم تأتى العروس فوق حصان أبيض مزين بالورود تكسوها خيمة شفافة من نسيج التل.. يندفع العريس فوق حصانه الأحمر ويختطفها بمهارة لتستقر خلفه وينطلق بها وسط تهليلات الأهل والجيران، تدق الطبول والآلات النحاسية ممهدة لانطلاق رقصات محمومة ينخرط فيها الجميع، وتتجلى مظاهر الطرب بكل أشكالها.. وفجأة تقتحم الحفل عصابة من الغزاة الهمجيين مشرعين سيوفهم فوق خيولهم الجامحة..

تتعالى الصرخات وتدب الفوضى.. يلحق الغزاة بحصان العروسين وينتزعون العروس من عريستها بوحشية..

فجأة انتفضت ضيفة الوزيرة واقفة وهى تصرخ كأنها المخطوفة، احتوتها الوزيرة فى أحضانها وراحت تهدئ من روعها حتى استكانت، ثم انخرطت فى البكاء.

عاد المتفرجون لمتابعة العرض بعد أن شدتهم صرخة السيدة الشابه، كانت اللوحة الدرامية معبرة بالحركة والموسيقى عن حالة الحزن والقهر التى عمّت الجماعة، وظهر العريس الفارس وسط مجموعة من الفرسان وأقسموا على استرداد شرفهم، ودقت طبول الحرب، وبدأت التجهيزات استعداداً للقتال: عربات حربية تجرها الخيول، مدججة بالمحاربين حاملين الرماح والسيوف، وفى الجانب البعيد كانت خيام معسكر الأعداء، وفجأة أشعلت نار هائلة انطلقت منها سحب كثيفة من الدخان، سلطت عليها أضواء الكشافات الكهربائية المتحركة بألوان شتى فزادتها جنوناً، واندفع الفرسان واقتحموا معسكر الأعداء، وأخذ الالتحام بين الطرفين شكل المبارزات الحامية بالسيوف فى مواقع متعددة وتبادلية من الساحة.. وأخيراً يتم إنقاذ العروس على يد الفارس الشجاع، كما يتم تحرير السبايا، ويندحر الأعداء، وتعود الأفراح والرقصات وتصدح الموسيقى احتفالاً بالنصر.

(3)

تفرّق المشاهدون بعد أن التهبت أكفهم من التصفيق عدة دقائق، وقادهم منظمو الحفل نحو الهضبة التى تطل على الساحة، حيث تنصب الخيام التى سيتناولون فيها الغداء، كانت الخيام ذات طابع بدوى على الطراز القرغيزى ومناطق جبال آسيا الوسطى، تبدو الواحدة على شكل قلنسوة ممتدة القمة، وقد زُينت من الخارج بقطع الجوخ الملونة بشتى الألوان نكرته - على نحو ما - بقطع الخيامية المصرية، وإن اختلفت خامّة وتصميماً زخرفياً، وفُرشت من الداخل بقطع من فراء الماعز والأغنام شكّلت فى أشكال فنية.

وفقاً للتقاليد؛ استضافت كل قبيلة أو عائلة بالبلدة مجموعة من الضيوف في خيمتها، وكانت خيمة صلاح والوزيره وضيفتها هي خيمة عمدة القرية أو هكذا كان يبدو، كان أعلى الجميع صوتاً بنبرة جبلية ذات صدى، سمينا شديد الحيوية كثير الحركة، بوجه أحمر متفجر بالدموية، محب للمرح لا يكف عن مداعبة الجميع بصوته المميز. أبدى اهتماماً خاصاً بالضيف المصرى معتبراً إياه ضيف الشرف..

قامت الوزيرة بدور المترجم بينه وبين صلاح الدين، والرجل شديد الاهتمام بمعرفة كل شئ عن مصر، كونها بلد الأزهر والمسلمين. سأله صلاح:

- هل أنت مسلم ؟

أوضحت له الوزيرة أن كل سكان المنطقة مسلمون، لكنهم يعرفون القليل عن الإسلام والعبادات، جلسوا أمام مائدة مستديرة واسعة بداخل الخيمة. كان واضحاً أنه تم تمييزها بأهم الشخصيات المدعوة، جلس بجوار الوزيرة التي أصبحت قناة التواصل الوحيدة بينه وبين الرجال المحليين، وبجوارها على الناحية الأخرى جلست ضيفتها غارقة في صمتها الحزين، قدّر أن وراءها أمراً يسبب لها ألماً لا تغلح في التخفيف عنه لمسات الحنان التي تغدقها عليها الوزيرة بين الحين والآخر، تشجع صلاح وسألها عن مشكلتها، فأجابت باقتضاب:

- مشكلة عاطفية.

جاء راعي الخيمة متلهلاً وهو يحمل قلنسوة طويلة من الجوخ الأبيض من صنع أهل المنطقة، وخاطب الجميع بصوت مرتفع كأنما يلقي بياناً هاماً، وفوجئ صلاح بأن جميع النظرات تتجه نحوه بابتسامات واسعة، أوضحت الوزيرة الأمر له بأن العمدة يعلن إهداء هذه القلنسوة إليك، وهي الرمز القومى للمنطقة، وقد زخرت ببعض الخيوط السوداء وكتبت عليها من الداخل بعض الآيات القرآنية، وقالت إنها أعلى تكريم تمنحه البلدة لأحد ضيوفها، وذلك حبا في مصر بلد الأزهر والإسلام. وقف صلاح مرتبكاً بحيائه، والرجل يلبسه القلنسوة ويصافحه بحرارة شديدة وسط تصفيق كل الحاضرين..

وشكره بكلمة موجزة مؤكداً أنه لن ينسى طالما بقي حياً هذه اللحظات الجميلة والحفاوة الكريمة، ونقل إليهم تحيات المصريين الذين أحبوا في أحد الأيام إبنا من أبناء قرغيزيا وقبلوا أن يكون ملكاً عليهم، وهو عز الدين أيبك.

وأرتفع التصفيق أكثر قوة، ثم بدأ الطهارة والمساعدون إحضار أطباق الطعام وأغلبها من تنويعات اللحوم والأرز وأصناف أخرى لا يعرف مكوناتها. ووضعت في منتصف المائدة صينية عليها رأس خروف مطهو بقرونه الملتوية وأذنيه الكبيرتين وعينيه اللامعتين. وطلب منه المضيف أن يقطع أذن الخروف ليعلن بدء الطعام حسب التقاليد عندهم باعتباره ضيف الشرف، حسبما شرحت له الوزيرة، حاول الاعتذار عن هذه المهمة بكل السبل، لكن الرجل وضع السكين الكبيرة في يده، وأمسك طرف أذن الخروف له مُسهلاً المهمة أمامه، قطع صلاح الأذن مقشعراً وكأن الخروف يشعر بالألم، وطلب منه الرجل أن يأكل قطعة من الأذن، وهو يتناول كأساً فارغاً ويصب فيه بعض الخمر من إحدى الزجاجات على المائدة، أعتذر صلاح بأنه لا يشرب الخمر. قال الرجل جاداً:

- إنها ليست خمرًا.. إنها فودكا محلية الصنع!.. هكذا ترجمت له الوزيرة، ثم نصحته هامسة بأنه لا بد أن يشرب حتى يستطيع الآخرون الشرب. تذوق قليلاً من الكأس فهل الجميع رافعين كؤوسهم "في صحته" !

استغرقوا في تناول الطعام صامتين، ولاحظ صلاح أن الوزيرة تشرب بنهم أكثر مما تأكل حتى أوشكت الزجاجات أمامها أن تفرغ.. وقرب أنتهائه من طعامه لاحظ أنها بدأت تسكر، كان هو وحده الذى لاحظ ذلك والكل مشغولون بالطعام والشراب، انتابه القلق من أن تتناول قدرًا أكبر من الخمر، عندئذ ستصبح غير قادرة على القيام بترجمة ما يتلقاه من أسئلة، قال لها في همس: إنك لم تأكلى شيئاً.. دعى الشرب وكلى شيئاً.

حاولت أن تتكلم فتلعثم لسانها، ضحكت من موقفها الغريب، وراحت تغمغم بكلمات باللغة الروسية على ما يبدو.. جاء العمدة يسأل عما هناك فأشار صلاح إليها

بدون تعليق، أخذ العمدة يتكلم ضاحكاً بدون أن يفهم صلاح ما يقوله وهي عاجزة عن الكلام. وفجأة انخرطت في البكاء الذى أخذ يتعالى ويبدو منه أنها تشكو من شئ ما. وضيفتها الشابة تبكى كذلك وترتبت عليها وتحاول إفاقتها دون جدوى.

جاء إليه شاب من أهل البلدة، وسأله بالإنجليزية هل يستطيع ان يساعده؟.. وكان ظهوره بمثابة النجدة له من ورطته.. سأله:

- هل فهمت من كلامها الآن مم تعانى؟

أشار الشاب إلى ضيفتها الشابة قائلاً:

- إن لدى ابنتها مشكلة.

- تقصد صديقتها؟..

- بل إبنتها.. هكذا قالت.

- ولم تبكيان؟

- لأن جهاز أمن الدولة اعتقل بالأمس زوج ابنتها.

- لماذا؟

- لا أعرف!.. أظن أنها قالت شيئاً عن.. عن أنه شيوعى.. من النظام السابق!

(4)

ودع الجميع عمدة البلدة شاكرين، واتجه صلاح إلى السيارة التى نقله مع الوزيرة وابنتها إلى المطار، واستدعى الأمر تعاون أكثر من شخص لمساعدتها للوصول إلى السيارة. وفى الطائرة المحلية الصغيرة جلس بالقرب منها تاركاً المقعد الملاصق لها

لتجلس ابنتها عليه.. كانت مغمضة العينين تماماً، فلم يتأكد ما إذا كانت نائمة أم في غيبوبة.

بعد حوالي أربعين دقيقة سمع حشرجة تصدر منها بصوت أقرب إلى الشخير، ثم بدأت تخرج رغاوى بيضاء من فمها. صرخت أبننتها واستتجبت بمضيف الطائرة. دبت حالة من الرعب بين الركاب، حضر مُسعف وحاول إفاقتها ثم جرى نحو كابينة القيادة، تبين وجود أحد الأطباء بين الركاب، جاء وقام بقياس ضغط الدم.. سأله صلاح: هل حالتها خطيرة؟

قال وهو يهز رأسه: أظن أنها لا بد أن تنقل فوراً إلى المستشفى.

علم من المسعف الذي عاد بأنه تم إبلاغ المطار لاستقبالها بسيارة الإسعاف فور وصولنا، وأنه لم يبق للوصول غير دقائق قليلة.

اللحظات تمضى ببطء كالساعات في انتظار الوصول إلى المطار، وعيون جميع الركاب مسلطة في إشفاق على وجه الأم وقد هرب منه الدم، والهلع يسيطر على ابنتها وهي تتمم من بين بكائها المستمر بكلمات غير مفهومة.

عندما وصلت الطائرة إلى المطار توقف الجميع في أماكنهم حتى صعد رجال الإسعاف وحملوا الوزيرة على السرير الطبي وابنتها تلهث خلفهم منتحبة، نزل صلاح الدين بين من نزلوا، ورأى سيارة الإسعاف تتطلق بالمرأتين، وغادر جميع الركاب قاعة الوصول بالمطار، بينما وقف هو وسط القاعة الكبيرة شبه الخالية.. لا أحد في انتظاره.. لا يعرف أحداً.. ولا أحد يعرف لغته..

وقف أمام الباب الخارجى للمطار المحلى الصغير لمدينة "ألما - آتا" يبحث عن سيارة أجرة توصله الفندق.

عروسة مريم

(1)

على سفح الجبل بالبر الغربى للأقصر، تتناثر فُوهات سوداء لمقابر الأسلاف المهجورة، بعد أن اقتحمها اللصوص فى أزمنة قديمة وسرقوا مجوهراتها وموميאותها، لكن نوافذ بيوت الأهالى الطينية على مدارج جبل القرنة، بواجهاتها البيضاء ذات الكرانيش البارزة والحليات الزجاجية أعلى الجدران، تتجمل بنوافذها الصغيرة الملونة بشتى الألوان كقطع الفسيفساء، أو كحبات عقد انفرطت فأخذت تُرصع اللوحة الأزلية لسفح الجبل، وهى تستقبل أشعة شمس الصباح، بإشراق يتحدى مظاهر الموت المؤقت على مر القرون !

ينتشر فنانو مرسم الأقصر القادمون من شتى الأقطار على امتداد المشهد بين الهضبة والجبل، ويختار كل منهم زاوية يرسم منها تكوينه الفنى برؤية خاصة، ينتقل بينهم بضعة صبية وفتيات صغيرات - من أبناء النجوع المجاورة، يلاحقون الفنانين بنماذج جصية مقلدة من تماثيل وجعارين فرعونية آملين فى بيعها لهم، بعد أن أوشك السياح على الانقطاع عن زيارة الآثار منذ حوادث الإرهاب، أما الفتيات الصغيرات فكن يعرضن عرائس بدائية نُفذت من قطع القماش الملونة وحُشيت بالقطن، وحيكّت تفاصيلها بخيوط سوداء غليظة بواسطة الإبرة، فلا يهتم أحد بهم أو بهن إلا قليلاً.

ضاق الفنان حسن بتزاحمهم حوله حتى أصبحوا يعطلونه عن الرسم، ولاحظ - عن بُعد - طفلة فى السابعة تنزوى جانباً محتضنةً عروسة كالأخريات، لكنها كانت أقرب إلى الولد منها إلى الأنثى بسبب شعرها المقصوص حتى فروة الرأس، كانت تراقبه من بعيد باهتمام، عازفة عن مزاحمة رفيقاتها. أشار لها للاقتراب منه، ظلت فى مكانها مترددة، على عكس الآخرين الذين تسابقوا نحوه حتى أحاطوا به وحجبوا عنه، كان الفقر بادياً عليهم بدرجة ملفتة؛ أقدام حافية غطاها التراب، وجوه انتشرت عليها البقع البيضاء بسبب الأنيميا، تستدعى أسراب الذباب للوقوف عليها بسبب قذارتها، ملابس

مهلهلة لم تعرف الغسيل منذ زمن.. روائح كل هذا تتبعث بشدة فتصيبه بالأختناق..
صاح فيهم قائلاً أنه لن يشتري شيئاً، وطلب منهم بحدة أن ينصرفوا بعيداً حتى يستطيع
العمل، يؤلمه خاطر بأنهم قد يكونون خمائر لإرهابيين فى المستقبل !

لم ينصرفوا إلا حين شاهدوا بعض السياح ذاهبين فى الاتجاه الآخر، فهى فرصة
نادرة لا ينبغى أن تفوتهم. لاحظ أن الطفلة حليقة الشعر لا تزال واقفة فى مكانها، ناداها
مشجعاً، جاءت وهى تحس ببعض الأطمئنان.. داكنة السمرة، لكنها سمرة رائقة، عيان
سوداوان بلمعة توحى بالذكاء، سألتها:

- مالك ؟

- مافيش.

- أنت خايفة ؟

هزت رأسها بالنفى.. وهى تبتسم لأول مرة. سألتها مشيراً إلى العروسة فى
حضانها:

- دى عروستك ؟

هزت رأسها بنعم وهى تزداد احتضاناً للعروسة. كانت العروسة مختلفة عن كل
عرائس الأخريات؛ ذات رأس كبير جداً بالنسبة للجسم، وشعر قصير منكوش رُسم
بخيوط سوداء عشوائية حول الوجه، ترتدى فستاناً ذا ألوان بهيجة من قساقيص قماش
متنوعة الألوان، وعلى الخدين بقعتان حمراوان.

سألتها إذا كانت تريد أن تبيعها فهزت رأسها موافقة وعيناها تلمعان بلهفة.

- مين اللى عملها ؟

- أنا.. وأختى ساعدتى.

سألها عما لديها غير هذه العروسة، فأخبرته بأنها لا تملك غيرها، وهي أول عروسة تصنعها، ولما لم تستطيع بيعها على مر الأيام الماضية لم تحاول صنع غيرها. عرف أن اسمها مريم وأنها لم تذهب إلى المدرسة، لكنها تعلمت كتابة الحروف والأسماء بمساعدة أخيها الأكبر.. لاحظ نظافتها بالرغم من الفقر البادى على ملابسها.

- أوريك ؟

أعطاهما قلماً ودفتر الاسكتشات، فكتبت اسمها بحروف متعثرة. سألته عن اسمه، وعندما أخبرها به كتبه بجوار اسمها. أراد أن يكافئها فاشترى منها العروسة بالسعر الذى طلبته. أخذت الورقة ذات الخمسة جنيها وانطلقت تسابق الريح حتى اختفت فى شعاب الهضبة نحو بيوت النجع.

(2)

فى اليوم التالى وجدها أمامه تترجم الأخباريات بجرأة لم تكن لديها بالأمس، كانت تحمل عروسة جديدة وهى تضحك له كأصدقاء.. سألها:

- إمتى عملتيها ؟

- أمبارح، بعد ما روحت وأديت الفلوس لأمى.

انشغل عنها بالرسم. انصرفت رفيقاتها يائسات من أنه سيشتري منهن، لكنها ظلت واقفة تراقبه. أخبرها بأنه لن يشتري عروسة ثانية، وأن الأفضل لها أن تذهب حيث السياح هناك يمكنهم شراؤها. هزت كتفها بما يعنى عدم اهتمامها بالبيع.

- طيب ليه جيتى يا مريم ؟

سكتت قليلاً قبل أن تقول فى خجل:

- عاوزة أقف معاك !

ربّت على خدها برقة قائلاً:

- لكن يمكن أمك محتاجه الفلوس.
- حاقول لها إن مافيش حد رضى يشتريها منى.
- لكن انتى تعبتى عشان تعملها.. ليه ما تبيعيهاش ؟
- هزت كتفيها وإصبعها على شفتها السفلى وقالت:
- حاديها لك لما ترسم لى صورة.
- أكد لها أنه سيرسمها بدون مقابل بعد انتهائه من اللوحه. قالت: ميتة؟. قال إنه لا يعرف تحديداً، لكن ربما ينتهى منها اليوم وسوف يرسمها غداً. قالت:
- عاوزاك ترسمنى بشعرى كده.
- عاوزة تكونى زى الولد ؟
- هزت رأسها بالإيجاب. قال مندهشاً: طيب ليه ؟
- لو كنت ولد كان أبويا حنَّ عليا زى ولاده !
- أنتو مش إخوات مع بعض ؟
- هم ولاده التانيين من مرته الجديدة.. وعاشين بعيد عنا فى نجع تانى.. وسابنى مع أمى واختين أكبر منى.. وعاوز ياخذ أخويا الكبير معاه.. هو راجلنا.. يعنى نعيش إزاي من غير أخونا؟.. إزاي وأبويا مش ببيجى حدانا ؟
- كانت تضم عروستها إلى صدرها بقوة حتى تكاد تعصرها.. واصلت:
- هو مش بيحب البنات.. لكن ربنا جازه وقال له طب خد !
- إزاي ؟
- خلف بنتين من مرته الجديدة !! وضحكت لأول مرة بصوت طفولى ساخر.
- تحبى تعيشى معاه أحسن وانتى بنت زى ما انتى ؟ .. فكرت طويلاً ثم قالت:

- لأ.. أحب أعيش مع أمى.. لكن.. هو مش بيدينا اللي نعيش منه، وأخويا الكبير بيشتغل ويصرف علينا.. عشان كدا أنا عاوزه أبقى زيه.. لأن أمى بتقول إنه لازم يتجوز.. طيب مين حيصرف علينا ؟

وضع حسن "بالتة" الألوان "وفرش" الرسم جانباً وهو يشعر بأنه مسئول عنها على نحو ما. فكر: كيف؟.. اهتدى إلى أن يشتري منها العروسة الثانية. عرض عليها ذلك. فوجئ بها تقول غاضبة.

- مش عاوزه أبيعها !

- ليه ؟

صممت مطرقة. أدرك أنه جرح كبرياءها بعرضه شراء العروسة فور علمه باحتياجها للمال، طيب خاطرها قائلاً أنه لا يقصد، وطلب منها أن تقول له رأيها فيما يرسم.

(3)

انتقل في اليوم التالي إلى منطقة بعيدة. كان قد اكتشف قيام المحافظ بالأمر بهدم مجموعة البيوت القديمة الرابضة في بطن الجبل منذ عشرات السنين، غير مبال بأنه يدمر تراثاً معمارياً يتكامل مع التراث الفرعوني بحس شعبي، وكان مصدر الإلهام دائماً طوال سبعين عاماً للفنانين والزائرين من كل مكان. كانت حجة المحافظ أن هذه البيوت تهدد سلامة المنطقة الأثرية وتشجع محاولات الاستيلاء على الآثار عبر السرايب التي يقوم الأهالي بحفرها من داخل منازلهم للتقيب بحثاً عن المقابر التي لم تكتشف بعد، فيما يعرف الأثريون جيداً أن هذه المنطقة قد تم مسحها أثرياً منذ زمن بعيد وأنها لا تبشر بأى كشف جديدة، وعلم الأهالي أن المقصود من الهدم هو إخلاء المنطقة لإقامة مشروعات سياحية جديدة. اتجه حسن وعدد من زملائه الفنانين لتسجيل ما يمكنهم من ملامح هذه البيوت النادرة قبل إزالتها، حتى تكون الرسوم نوعاً من التوثيق لها.

استغرقه الرسم فى هذا النجع عدة أيام، ونسى فى غماره أمر مريم، حتى فوجئ بها أتية من بعيد، مع اقترابها استعد لاستقبالها باشتياق حقيقى، كانت تجرى وهى تتلفت باحثة عنه، وعندما رأته وقفت على بعد خطوات منه صامتة وكأنها "مخاصماه" .. وسلم بأن من حقها ذلك لعدم وفائه بما وعدّها به. قام واعتذر لها موضحاً ما دعاه إلى المجرى هنا. لم تكن تحمل أى عروسة. أخبرته معاتبَةً أنها ظلت تبحث عنه طوال الأيام الماضية فى كل النجوع، وخافت أن يكون قد سافر، لولا أنها قابلت بعض زملائه الفنانين وعلمت منهم بمكانه.. احتضنها مطيِّباً خاطرها، فانفجرت أساريرها وعادت إلى طبيعتها.. ثم قالت فجأة:

- عاوزاك تقوم معايا يا عمو.

- على فين ؟

- على البيت.

- ليه ؟

- عازماك عندنا. أنا قلت لأمى فقالت أهلاً وسهلاً.

- لكن إيه المناسبة ؟

- عاوزاك تشوف بيتنا وأمى وأخواتى وتشرب شاي عندنا. أنا قلت لهم اننى عازماك.

- امتى ؟

- دلوقتى.. أمى منتظراك.. وحاخايك تطلع فوق السطوح عشان تشوف البلد

كلها من فوق وترسم هناك لو انت عايز !

شدت يده تستحته على الذهاب. استسلم لها وجمع أدواته، وتبعها فى دهشة. توقفت فى الطريق فجأة وهى تقول: إستنى يا عمو.

وقف ينتظرها مترقباً. دست يدها فى جيبها وأخرجت حجراً صغيراً ناعماً يلعب فى ضوء الشمس بألوان بين البنفسجى والأزرق، قدمته إليه باسمه، سألتها عنه قالت:

- جايباهولك.

- منين ؟

- لقيته على الأرض.. قلت أشيلهولك.. ينفع عمله خاتم.

قَبَل راسها فى حنان ومضى معها صاعداً هابطاً فى دروب الهضبة، مارَّين بفتحات مقابر مهجورة سطا عليها اللصوص فى أزمنة مجهولة، من بعيد تطل واجهة معبد الدير البحرى التى تحمل اسم حتشبسوت، وعبر الممرات والدروب الضيقة يرى مظاهر فقر مؤلمة لأناس نسيهم الزمن ووجوه أطفال تغطيها أسراب الذباب، عليهم ملابس ملهله لم يعد لها لون، بعض الحمير والماعز والكلاب تسرح هنا وهناك بغير صاحب، وأمام كل بيت من البيوت القزمية يقام مهد طينى مرتفع للأطفال الرضع يوضعون فيه ليلاً فى قيظ الصيف خوفاً عليهم من الحر والعقارب.

(4)

أمام البيت استقبلته أسرة مريم كضيف رفيع المستوى.. الأم فى الأربعين، والأختان، كبراهما فى السادسة عشرة والأخرى تصغرها بقليل، رحَّبن به فى حفاوة وقُدَّنه إلى "المندره" التى بُنيت أسفل جدرانها مصاطب طينية فُرشت بالحصير والكليم. بدت مريم تائهة فى الزحمة لكنها تضحك بسعادة وهى لا تعرف ماذا تقول فى مثل هذه المناسبات.

وجاءت إحدى الأختين بعلبة عصير مثلج، كأعلى تحية يمكنهم تقديمها إلى ضيف عزيز، وتقاطرت نسوة وفتيات وأطفال الجيران يراقبن هذا الحدث المثير. أنقذت مريم الموقف بذكاء وهى تشد حسن من يده نحو السلم الطينى قائلة

- احنا حنطلع فوق على السطوح عشان ترسم هناك.

سمعت إحداهن من فوق سطح البيت المقابل تسأل:

- هو مين دا يا مريم ؟

قالت وهي فخورة مزهّوة:

- صاحبي.. وحيرسمنى.

فجأة دبت فى المنزل حالة من الهرج والفرع، وانصرف الجيران فى لهوجة، وصعدت الأختان تتبهان مريم إلى أن أباهن فى الطريق وقد بلغه خبر دخول غريب إلى المنزل فى غيابه، والأم تولول بصوت خفيض وكأن كارثة قد حلت بهن.. لم يفهم حسن جيداً ماذا هناك وماذا عليه أن يفعل وأى خطأ اقترفوه.. قالت أختها الكبرى.

- انزلى قبل ما يطلع يموتك ؟

وقفت مريم ممسكة بيد حسن فى استماتة وهى تقول:

- مش نازلة.. إحنا هنا فى بيتنا مش فى بيته !

قالت الأخت: وإن طلع حتقوليله إيه ؟

- حاقوله.. عمو حسن صاحبي.. وأنا اللى عزمته.

وقف حسن متوجّساً، يترقب ما يأتى به المجهول، ومن خلفه بانوراما تضم بقايا حضارة مندثرة، تطل آثارها على الوادى عبر فُوهات المقابر التى نُهبَت منها جثامين صانعيها، فبدت كعيون أصحابها وهى تراقب ما آل إليه مصير أحفادهم !

الزمن المفقود

(1)

لم يبق فى الشقة مكان للوقوف أو ممر للسير.. كل الحجات والصالة والممرات، حتى المنور الذى تطل عليه فوق الدور الأرضى من العمارة.. تكتظ باللوحات والإطارات الخالية بكل المقاسات، يقف وسطها مرتبكاً يحاول ترتيبها فى مجموعات زمنية.. يريد تحية لوحات كل عقد من السنين فى جانب، ليكون سيناريو العرض وفق تسلسل زمنى، يحسب الأيام المتبقية على افتتاح المعرض الاستعاضى.. هناك أعمال قديمة بحاجة إلى ترميم.. والكثير يحتاج إلى إطارات جديدة تليق بمعرض تاريخى يضم رحلة خمسين عاماً من الفن.. المشكلة تكمن فى مرحلة الستينيات.. ما بقى منها لديه أقل بكثير من المراحل التالية، مع أهميتها الشديدة كترية إبداعية حملت خمائر شخصيته الفنية على امتداد مسيرته على تنوع أساليبها.

اتجه تلقائياً إلى لوحة "الأب والإبن" حيث نقلها لتبقى وحيدة فى شرفة المرسم.. وقف يتأملها، تمتزج بداخله مشاعر الحزن والغضب.. التحدى والفشل.. العجز والندم.. كان يأمل أن تكون هى "اللوحة المفتاح" لعالمه الفنى الممتد.. كأقدم لوحة لديه اليوم طوال تاريخه، وكجزء من حلم بعالم إنسانى جديد ظل يلازمه طول هذا العمر، وومضة من عصر ارتبط بذكرىات شبابه، وبقيم نبيلة وطموح للمستقبل.. لكن.. ها هى ترقد أمامه كبقايا مشوهة ومطموسة، بعد أن كان يحسب أنها ستكون أيقونة معرضه، وارهاصة قوية لمسيرته الفنية التالية، كانت واحدة من لوحات مشروعه المفقود للتخرج فى كلية الفنون الجميلة أواسط الستينيات الذى استحق عنه تقدير الامتياز، وكان أولى خطواته على طريق التحقق.. ومن الذى فعل بها ذلك التشويه أو الإعدام؟.. إنه هو.. وبيده!

حتى شهور قليلة مضت لم تكن هذه اللوحة تخطر على باله، شأنها شأن بقية شقيقاتها فى مشروع التخرج الذى اختفى من الكلية بعد تخرجه وأنشغاله بحياته العملية، فلم يذهب لاسترداد اللوحات، وبعد سنوات طويلة ذهب للسؤال عنها، فلم يجد لأى منها أثراً، ولا حتى دليلاً يسير على ضوئه للبحث عنها، كانت أطراف لوحاته تتزاحم بخاطره كلما بدأ فى رسم مشروع جديد، وهو يتأمل أجواء أى مكان فى الريف وأى واحة فى الصحراء، مما يتشابه مع مشروعه القديم، مع اختلاف الطابع والتفاصيل المعمارية وطبيعة النماذج البشرية بين مرحلة وأخرى، كان قد تفرغ لتنفيذ المشروع ثلاثة أشهر مقيماً فى قريته، فاستوحى عالمها السحرى بين الواقع وما فوق الواقع، مبرزاً كفاح الانسان وصموده كأشجار تواجه الريح، وعبرت اللوحات عن انحيازه للفلاحين والفقراء وهم يقابلون الشقاء بالعطاء ثم لا يحصدون غير الخبز الجاف، بالرغم من كل مشروعات التنمية والعدالة فى ذلك العصر، وكانت لوحة الأب والإبن - بمبالغات نسبها التشريحية وفطرية ملامسها الطينية وتكشف ألوانها الترابية - تعبيراً عن واقع خشن وحلم بالمستقبل فى آن، وهى تضم الفلاح الكادح وابنه الصغير جالسين (على سكة سفر) وسط خلاء عريض، ينظران نحو البعيد المجهول فى حالة انتظار أزلى عاشه المصرى آلاف السنين.

ما الذى ذكره بهذه اللوحة إذن بعد أن فقدها نصف قرن، ثم جعله يحلم بأن تكون أيقونة المعرض؟.. وكيف أمكنه العثور عليها أساساً؟..

(2)

كانت البداية هى اتصال تليفونى تلقاه الفنان عاصم الرمالى من رقم مجهول يسأله فيه رجل عن لوحة الأب والإبن، وهل يعلم أين مكانها؟.. كان قد نسيها تماماً، فعصر ذهنه محاولاً التذكر دون جدوى، أخبره الرجل بتاريخ إنتاجها المسجل تحت التوقيع، فربط ذلك على الفور بتاريخ مشروع التخرج، وتدفقت بخاطره فى الحال ملامح اللوحة، وسأل الرجل فى لهفة: أين هى؟.. فأخبره بأنه يحتفظ بها فى بيته فى أسيوط،

قائلاً إنه وجدها ضمن مقتنيات بيت والده الراحل، ولم يكن يعرف شيئاً عن الفنان الذى رسمها، حتى بحث عنه على الإنترنت فعرف أنه فنان مشهور ذو تاريخ طويل وإنجازات بارزة، فسأل عنه حتى استدل على رقم هاتفه..

استولت الفرحة على قلب عاصم، لكنه تمهل فى إعلان لهفته حتى يرى صورة اللوحة، فطلب من المتحدث - الذى عرفه بنفسه باسم عمران - إرسال الصورة إليه عبر "الإيميل"، وأرسل إليه عنوانه على الهاتف المحمول، وانتظر حتى وصلت إليه الصورة بعد ساعة.

كانت لحظة اللقاء الأول بينه وبين صورة اللوحة جياشة بالمشاعر، كلحظة عثوره على ابن له وقد حسبه رجل عن الدنيا.. تدفق على الفور نبع الذكريات أثناء قيامه برسم المشروع فى القرية، وتدافعت صور الأشخاص والأماكن والأحداث، وجعله هذا الطوفان العاطفى يتغاضى عما لاحظته فى اللوحة من خروم وبقع وتجريحات هنا وهناك وقتامة فى الألوان التى طمست بفعل الزمن أو بفعل طبقة الورنيش الرديء التى دهنت بها فزادتها قتامة.

أتصل بعمران على الفور وأبلغه بأن اللوحة تخصه بالفعل، وسأله عما يفكر فيه بشأنها، كان يبدو من لهجة الرجل ومفردات حديثه أنه تاجر بالأرياف، وربما كان يتاجر فى أنتيكات البيوت القديمة لعائلات أعيان الصعيد، وربما كانت اللوحة قد وصلت إلى إحداها قديماً من خلال بائع روبايبكا أو ما شابه.. أجاب عمران:

- أوامرك يا باشا.. ليس لى أى طلبات.. فهى حقك وأنا خدامك!

شكره عاصم بحرارة وسأله عن كيفية الحصول على اللوحة، فأجابه بأنه سيحملها إليه فى القاهرة مع زيارته القادمة وسيبلغه بموعدها حين يقرر السفر.

مرت الأيام والأسابيع ولم يسمع خبراً عن مجئ عمران باللوحة، حاول عاصم الاتصال به على رغم الهاتف الذى حدثه من خلاله قبل ذلك مراراً فلم يتلق جواباً، فى البداية فسر الأمر على أن الرجل يحاول التلاعب به، ثم فكر أنه ربما لا توجد اللوحة

عنده وأنه وسيط بين آخرين وبينه وأن الأمر ذهب فى سكة المساومات، وأخيراً انتهى إلى أنها مجرد لعبة عبثية لن تنتهى إلى شىء، فقرر أن يصرف النظر عن اللوحة بما يكتنفها من غموض، وحسبُه أن يتأمل صورتها على "الفيس بوك أو الموبايل" ويستعيد من خلالها ذكريات الزمن الجميل.

(3)

فوجئ عاصم باتصال جديد من "عمران" يعتذر عن تأخره فى الاتصال به لسفره خارج البلاد فى الفترة الماضية، سأله عاصم بلهجة حاسمة:

- من فضلك يا حاج عمران، أريدك أن تخبرنى بصراحة: هل لك مطالب خاصة؟

استنكر الرجل أن يكون هذا تفكير عاصم، وأكد له أنه (ابن ناس) ويعرف الأصول، ويكفيه شرفاً أن يتعرف على فنان عالمى مثله، وحدد له موعداً للحضور بعد يومين، فأملاه عاصم عنوانه مفصلاً على أن يتصل به فور وصوله إلى القاهرة..

كان هذان اليومان أطول 48 ساعة فى حياة عاصم، فقد أخذته الظنون والهواجس إلى أنه قد يتعرض لعملية ابتزاز، أو إلى عدم حضور عمران فى مواعده، ومن ثم يدخل به فى دوامة لا يعرف نهايتها. لكنه تلقى مكالمة منه فى الموعد المتفق عليه يخبره بأنه على قمة الشارع الذى يقيم فيه ومعه اللوحة.

قفز عاصم من الفرحة، مع شعور بالذنب لما خامره من سوء ظن بالرجل، ووقف فى شرفة المرسم فى انتظاره، حتى رأى سيارة أجرة تقف أمام العمارة وينزل منها رجل خمسينى أسمر يميل إلى البدانة بشعر أشيب على جانبي جبهته، وأخرج من الكنبة الخلفية لوحة كبيرة مغلفة بالورق، أسرع عاصم بالنزول لمساعدته عند الباب، وبعد السلام والتحية أصر عمران على أن يحمل اللوحة إلى المرسم، وهناك نزع عاصم الغلاف عنها بحرص حتى كشف عنها ووضعها أمامه يتأملها فى استغراق شديد متابعاً فى ذات الوقت ثرثرة عمران المستمرة وهو يحكى كيف أصر على إحضارها إليه، رافضاً

بيعتها لعدد من أصحاب قاعات الفن الشهيرة بالزمالك الذين عرضوا عليه ثمناً للوحة بلغ ثلاثين ألف جنيه.. أصبح عاصم مشتتاً بين تأمل اللوحة وما أصابها من تشويه فى أماكن عدة، وخاصة طمس ألوانها بلون نحاسى بسبب دهانها الخاطىء بطبقة من ورنيش الأرضيات على ما يبدو، وبين حديث الرجل الذى أثار هواجسه بشأن نواياه فى استغلال الموقف.. فما هى البداية غير مبشرة بخير، برغم عودته إلى التأكيد إلى أنه رفض بيعها بهذا المبلغ لأن صاحبها أولى بها، وأن المال ليس كل شىء.

أعاد عاصم تقديم الشكر والامتنان إليه، ومع رشقات الشاى كان عمران يتأمل اللوحات المعلقة والمتناثرة فى كل مكان قائلاً:

- ما شاء الله.. كل هذه اللوحات من أعمالك؟.. كان معى حق عندما قلت إن ما نُشر عنك على الانترنت قليل من كثير.

بينما كان يجول بخاطر عاصم أن هذه مقدمات لها عواقب غير مطمئنة، وأراد أن يقول له: وبعدين؟.. هات من الآخر !

وبالفعل.. سرعان ما بدأت المساومة، ليقف عمران عند عشرين ألفاً رافضاً أن يتزحزح عن المبلغ، مما دفع عاصم إلى القول:

- إذا كنت مصراً على ذلك فإننى أنصحك ببيعها إلى الناس الذين عرضوا عليك ثلاثين ألفاً.. لأننى لا أملك - وأقسم لك - غير ألفين.

وبعد مساومات مضنية وعقيمة وجد عمران مخرجاً، فاقترح أن يبادل لوحة الأب والأبن بإحدى اللوحات المعلقة بالمرسم.. كان الطلب قاسياً لكن الخوف من فقد اللوحة للمرة الثانية كان أقسى، فلم يجد عاصم أمامه إلا الإذعان.

قام عمران وراح يتأمل اللوحات المعلقة، ثم يقلب فى اللوحات المركونة على الجدران كتاجر روبانكيا يقلب فى البضاعة، وأخيراً وقع اختياره على لوحة استوحاها عاصم من بيوت البر الغربى بالأقصر ولها مكانة خاصة فى نفسه، وعندما عبر عن

ذلك لعمران ازداد إصراراً على الحصول عليها، يدفعه إلى ذلك على الأغلب حسه كتاجر، لأن فرصة بيعها أكبر، بالرغم من قسمه بالإيمان المغلظة على أنه سيحتفظ بها فى بيته كذكرى عزيزة له ولن يفرض فيها طالما كان حيا !

ورضخ عاصم فى النهاية، وبدأ يجهز اللوحة ليسلمها لعمران، فإذا به يسأله:

- وحق أخوىّ الجالسين الآن بالمقهى فى انتظارى؟.. إنها شريكان لى فى الميراث، ولا تعنيهما اللوحة الجديدة، كل ما يعنيهما.. وحرك إصبعى السبابة والابهام بمعنى الأوراق المالية.

وبدأ عملية مساومة جديدة، وكان على عاصم أن يقبل الخسارة طالما قبل بدخول اللعبة منذ البداية، وانتهت المساومة بأن يدفع ألفين من الجنيهات لأجل الشقيين المنتظرين على المقهى، وإلا انتهت الصفقة إلى الفشل وخسر لوحته القديمة العائدة بعد نصف قرن !

(4)

بدأت الرحلة الأصعب.. وهى ترميم اللوحة، والمشكلة ليست فى التجريحات والبقع والخروم وتساقط الألوان عن بعض الأماكن، فكل هذه أمور اعتادها عاصم فى ترميم لوحات سابقة، إنما المشكلة فى كيفية إزالة طبقة الورنيش التى تكسو اللوحة بلون نحاسى متسخ شديد القبح، استشار عدداً من زملائه ذوى الخبرة فى الترميم، واشترى المادة المذيبة للورنيش التى نصحوا بها مؤكدين أنها لم تؤثر على الألوان الأصلية.

ظل أياماً كثيرة متهيئاً من بدء العملية، يسيطر عليه الخوف من فشلها فتضيع اللوحة بين يديه، لذلك بدأ التجربة فى ركن من الخلفية، وشعر بالارتياح للنتيجة السريعة، حتى بدأت طبقة الورنيش تذوب تدريجياً مع قيامه بمسّها مساً خفيفاً بقطعة من القطن، واستعان بسكين الألوان ليزيح الطبقة البنية جانباً فتكشف عن اللون الأصلى للوحة، شجعه ذلك على التوسع فى عمليتى المس والإزاحة، حتى دخل إلى المناطق المركزية التى تمتلئ بتفاصيل الرسم الدقيقة، وأصبحت هناك تجمعات من المادة

الكيمائية المتجلطة من الورنيش تستوجب كشطها بعيداً عن سطح القماش.. وهنا كانت الكارثة..

لقد تجمدت هذه التجمعات المتجلطة والتصقت بلزوجتها بسطح اللوحة، وكلما حاول إزاحتها وكشطها مستعينا بمزيد من المادة المذيبة كلما ازداد طمسها لمناطق مجاورة، فكأنما يقوم بعملية تجريف للوحة، حتى أخذت تتحول إلى وجه قبيح ملئ بالتسلخات المرعبة والبؤر الصديدية.. أصابه الهلع من سرعة جفاف المادة المذيبة وشدة تماسك التجلطات الكيمائية، تاركة بجانبها مناطق مسلوخة من السطح الأساسي القديم لنسيخ اللوحة، فراح يضاعف من كمية المادة المذيبة، فإذا بها توسع مساحة المناطق المشوهة أكثر مما تساعد على إزاحة التجلطات اللزجة عنها.. جن جنونه، وأخذ يلهث في محاولة مسعورة لمحاصرة مناطق التسلخات على سطح اللوحة حتى لا تنتشر وتتكاثر كمرض جلدى خبيث، أخذ في جنونه يستخدم أصابعه لانتزاع الكتل المتجلطة اللزجة لتلتصق بها مهددة بتآكل جلدها، فاضطر إلى استخدام سائل "النتر" وهو الوحيد القادر على إزالتها، لكنه أذابها ولم يُزلها فازداد الأمر سوءاً، وأصبح حائراً بين إنقاذ اللوحة أو إنقاذ أصابعه، وأخيراً نجح سائل "الترينتين" فى تنظيف أصابعه ويديه من المادة اللزجة.. وانتقل إلى اللوحة محاولاً أن يفعل شيئاً لإنقاذها، بينما يتصاعد بداخله شعور بغضب شديد، لا يعرف مصدره أو إلى أى شئ يوجهه، وفى حمأة غضبه خطر له أن يدفع بالمادة المذيبة على اللوحة كلها فيطمسها، أو أن ينهال عليها بالسكين تمزيقاً.. لكنه استطاع أن يتمالك أعصابه، فتوقف عن أى فعل.

استلقى على أحد المقاعد مغمض العينين وهو يحمل كل شقاء الدنيا فوق صدره.. بينما يتمم وهو يدق المسند بقبضته بكل ما سيطر عليه من غضب: غبى!.. غبى!

(5)

ظل عدة أيام يتجنب رؤية اللوحة، أو حتى دخول الشرفة التي نقلها إليها، وكان هناك جثة لحبيب اغتالته يده؛ لم تكن الضحية هي اللوحة بذاتها، بل كانت تاريخاً بأكمله، ماضياً جميلاً كان يحتفظ به لا يسمح بتشويهه حتى وهو يعلم بأنه لم يخلُ من تشوهات.. لقد أراد أن يزيل طبقة الورنيش النحاسية المؤكسدة باعتبارها العازل بين نقاء الماضي وبين عتامة الحاضر، ولم يدرك أن تلك الطبقة كانت هي منتج مركب للخمسين عاما التي مرت على الماضي فجعلت منه خبيثة، والتصقت بجلده حتى توحد معها وأصبح من المستحيل محوها، فكان الصواب هو الإبقاء عليها كما هي، وهذا هو ما حاولت طبقة الورنيش أن تفعله للحفاظ على الماضي، إلا أنها كانت من خامة رديئة أفسدت الماضي والحاضر وما بينهما، ولم يكن علاجها هو الإزالة.. ثمة شئ آخر كان ينبغي فعله بدلاً من ذلك لا يعرف ما هو.. والآن.. هل ضاعت اللوحة ضياعها الثاني والنهائي هذه المرة!؟

(6)

أزف الوقت لإقامة المعرض، ووجد عاصم أن مأساة اللوحة عطلت برنامجه لإنهاء الترتيبات المطلوبة قبل الافتتاح، وعليه أن يتخذ القرار بإزاحة الموضوع برمته من رأسه حتى يستأنف العمل...

وقف أمام اللوحة المغتالة على يديه، وهو ممزق بمشاعر الجاني والضحية معاً، واتخذ القرار الصعب باستبعادها من العرض.. وأثناء التجول ببصره فوق سطحها لمعت بين مناطقها المشوهة أجزاء سليمة وواضحة التفاصيل لوجهي الأب والإبن وأجزاء من الأيدي والملابس الريفية، وكان الأكثر لمعاناً هو عيون الشخصين المسددة بقوة نحو الأمام إلى ما لا نهاية؛ برقت في ذهنه فكرة؛ إن اللوحة الآن لم تعد بنت الماضي أو الحاضر، إنما هي بنت روحه النفاذة عبر العيون الأربعة، الشاخسة نحو المجهول تريد أن تُفَضَّ بكارته.. تلك اللحظة الملهمة دائماً بصيرورة الحياة نحو التقدم.

توهجت الفكرة على الفور فى جميع قدرات البصر والبصيرة التى يملكها عاصم، وهو يحمل اللوحة وينطلق بها نحو حامل الرسم، مقرّراً أن يكسو المناطق المشوهة بقطع من الشاش أو النسيج الشفاف، يرش عليها ببخاظة الألوان درجات مموهة بكل الأطياف، كغشاء رقيق يبرز بين ثناياه وجها الأب والإبن، عيونهما إلى الأمام بقوة البصر والبصيرة، يخترقان بها غشاء الزمن.

الشيخة زكية

(1)

استلقى الأولاد فوق كوم التبن وهم يلهثون منهكين، لا يمنعهم فرط التعب - عقب انتهاء ألعابهم الشاقة والخشنة - من الضحك وإطلاق الفكاهات، لقد انهدت قواهم بعد ممارسة كل ما عرفوه من ألعاب فترة المراهقة، بدءاً من المصارعة الحرة وانتهاء بلعبة "صلح"، حتى تورمت أكفهم من عنف الصفعات الجبارة للزملاء على كف اللاعب الذى يوقعه سوء حظه فى الوقوف وظهره لهم، وكف يده اليسرى ملتصقة بجنبه، فيضربه أحدهم بأشد عزمه، وعليه أن يتعرف على الفاعل حين يلتفت إليهم ويخرجه من بينهم ليحل محله، وهم يرفعون أصابعهم إعلاناً للبراءة.. كانوا تلاميذ فى المرحلة الإعدادية، باستثناء "أحمد" الذى سيلتحق بالصف الأول الثانوى بعد العطلة الصيفية.

قرص القمر يصعد إلى كبد السماء، فيساعد ضوءه الحالم على تهدئة انفاسهم اللاهثة واسترخاء عضلاتهم المشدودة. أغمض البعض عيونهم وكأنهم يستسلمون لسلطان النوم، فيما سرح البعض الآخر بخياله مع أحلام المراهقة، لم يكونوا راغبين فى العودة إلى بيوتهم، فقد تناولوا عشاءهم قبل خروجهم منها فى أول المساء، ولن يأتيهم النوم فى هذه الليلة الحارة لو حاولوا.. قطع أحدهم الصمت قائلاً..

- سمعوا آخر نكتة؟

انتفضوا معتدلين فى شغف لسماعها، وبدأوا الضحك حتى قبل أن يسمعوها، وعندما انتهى زميلهم من إلقائها انفجروا ضاحكين وهم يتمرغون سروراً فوق كوم التبن، وتباروا بعدها فى إلقاء النكات التى كان معظمها قديماً من ميراث القرية قبل أن يولدوا وقد سمعوها مراراً، ومع ذلك يضحكون منها وكأنهم يسمعونها لأول مرة، وأخيراً نفذ رصيدهم منها فعَمَّ الصمت برهة حتى قطعه أحدهم:

- تيجوا نحكى حواديت ؟

أنهالوا عليه بالشتائم ساخرين، وتمادى أحدهم فركله "بالشُّلُوت" وهو يصيح مهذراً:

- قوم رَوْح ياله.. إيه اللي مقعدك معانا؟.. إجرى العب مع العيال اللي زيك!
وكان لا بد أن يجدوا شيئاً آخر يستكملون به السهرة، والقمر لا يكف عن مداعبة حواسهم ومغازلة خيالهم للقيام بشئ غير عادى.. مجنون.. يحتوى هذه الطاقة المعرّبة فى دمائهم وأرواحهم.. ويأخذهم نحو مغامرة مجهولة.. اعتدل "عباس" قائلاً:

- مين فيكم شاف عفريت ؟

صمتوا والرهبنة تخيم عليهم، كأنما قد حلت بمجلسهم فجأة كائنات مخيفة غير مرئية..

حاول "سيد" أن يسفّه ما قاله عباس، وكان فى الحقيقة يريد إزاحة الخوف عن نفسه، فقال:

- أظن إنك حتقشر وتقول لنا إنك شفته.. قديمة !

لكنهم أعطوه الفرصة أخيراً ليحكى تجربته عند الساقية القديمة، وكيف رأى شبحاً يخرج من البئر فى عز القيالة، فترك سلة الطعام التى كان يحملها إلى أخيه الأكبر فى الغيظ "وقال يا فكيك"، فإذا بالشبح يتحول إلى معزة سوداء تجرى خلفه حتى غاب عن الوعى!..

تشجع آخر فحكى عما سمعه من أبيه عن البيت المهجور المجاور لبيتهم الذى كانت تسكنه العفاريث وتقيم فيه حفلات ليلية صاخبة، وفشلت النار التى أوقدها جده داخل البيت فى إحراقهم لأنهم أصلاً مخلوقون من النار، ولم تنجح فى ذلك إلا قراءة القرآن التى داوم عليها جده وهو جالس فى البيت كل ليلة، وكان يراهم وهم يقذفونه بأطفالهم والنار مشتعلة فيهم !

(2)

حبست الرهبة أنفاسهم، وظلوا مبهورين وعاجزين عن الكلام، حتى تشجع "أحمد"
- وهو أكبرهم سناً - وقال:

- على فكرة كل ده كلام فارغ.. دى خزعبلات !

صاحوا فى نفس واحد ولم يكونوا قد سمعوا هذه الكلمة من قبل: إيه؟.. فاستمر:

- أيوة.. خرافات يعنى.. ودجل كمان.. والدجالين بيألفوا الكلام ده عشان ياكلوا
عيش بالسحر.

قاطعوه واتهموه بالكفر، لأن الجن المذكورة فى القرآن.. وكذلك السحر.. ثم سأله
من أين عرف بما يقوله؟.. وهل هو أعلم من فقهاء القرية؟ قال:

- دول متخلفين !

وكأنه دلق بنزينا على النار، فازدادت حدة النقاش والالتهامات.. وفجأة قال "سيد":

- طيب تقدر تقول الكلام ده قدام أبوك يا وحش؟

- أيوه أقدر.. زى أخويا عبد الله ما قاله..

وحكى لهم أن عبد الله - شقيقه الأكبر خريج الجامعة - قال لأبيه أكثر من
ذلك، وأن هذه الخرافات من أسباب تخلفنا، وأن الفقهاء والمستغلين للفقير والجهل هم
المستفيدون منها.

- وأبوك سكت له ؟

- لأ.. زعل منه وبعدين سكت وقاله بس إنت خليك فى حالك ماتقولش الكلام
ده قدام حد.

انضم "على" إلى رأى أحمد وقال إنه سمع فى التلفزيون أن بعض المرضى
النفسيين تظهر لهم خيالات، وأن الفقراء يسمونها "أسياد" فيقيمون حفلات الزار لإخراج
الأسياذ من اجسامهم وأن المستفيدين هم الدجالون، وبعد قليل انضم إليهما متولى محاولاً

إمساك العصا من الوسط، قائلاً أن هناك نوعين من الجن.. النوع المسلم الذى يؤمن بالله والنوع الكافر الذى يعبد الشيطان..

قال "سيد" وهو أكثر المؤمنين بالعفاريت موجهاً كلامه إلى المخالفين الثلاثة:

- طيب الميّه تكذب الغطّاس.. تقدروا توصلوا لحد "التُّرب" بحرى البلد دى الوقت؟ كان التحدى يعنى الوصول إلى منطقة المقابر التى يشاع أنها مأوى الأشباح والعفاريت.. أعلن احمد قبوله للتحدى ونظر إلى على ومتولى مستطلعاً مدى استعدادهما لذلك، أبدى على استعدادة فوراً، واقترح متولى إجراء سباق لكل الأولاد فى الجرى حتى قنطرة الترعة البحرية، وبعد ذلك يمكن لمن يشاء أن يواصل السباق نحو المقابر.

وافق الجميع على الاقتراح، لكن "سيد" أضاف قائلاً:

- بشرط أن نقطة النهاية فى السباق تكون عند تربة أبو سويلم، يعنى فى آخر شارع من شوارع "التُّرب" واحنا حنقف عند القنطرة ونشوف اللى حيستمر للأخر.

(3)

وقفوا جميعاً منتظمين فى صف بالعرض، ثم انطلقوا فى الجرى واضعين أذيال جلابيبهم بين أسنانهم، مع فارق السرعة بين الثلاثة المعارضين والبقية من المؤيدين، فلم يكن لدى هؤلاء الدافع للمنافسة، وكانت مهتهم تقتصر على المراقبة، حتى تجاوزوا بيوت القرية واقتربوا من جسر الترعة البحرية، فبدأ مؤيدوا وجود العفاريت يتباطئون واحداً بعد الآخر لاهئين، حتى توقفوا تماماً فوق القنطرة الخشبية، فيما واصل الجرى المتسابقون الثلاثة - أحمد وعلى ومتولى - ودخلوا بالفعل منطقة المقابر، التى تتكون من شوارع متوازية منتظمة تتفرع من الطريق الرئيسى الذى يجرون فيه. وانطلق نباح متحفز لكلاب بعيدة، فبدأت سرعة متولى تتباطأ تدريجياً.. حتى اقترب النباح ناحيتهم وهم لا يتوقعون من أى شارع من عالم الأموات سوف تخرج الكلاب عليهم وتهاجمهم، هنا توقف متولى وقد سيطر عليه الرعب فاستدار مولياً الأدبار، وهو يسمع من ناحية القنطرة صيحات زملائه يعلنون هزيمته وانسحابه هازئين.

استأنف أحمد وعلى التقدم فى حذر وهما يمرّان بصنوف شوارع الموتى المتراصة صفاً بعد آخر، وشواهدا المشرّبة إلى السماء تبدو كأنها رؤوس الأشباح.. تظن فى أسماعهما أصوات صراصير الحقول ونقيق الضفادع.. يقاومان باستماتة الرغبة فى الانسحاب - لكن بشرف - كلما سمعا نحيب البومة "أم قويق"، أو لاحظا حركة لطائر يندفع فجأة من غصن شجرة ليحط على غصن آخر.. كانت تفصلهما أمتار قليلة، وكلما استمرا فى الجرى - الذى أصبح أقرب إلى الهرولة - تباطأت سرعة على.. فجأة تنهى إليهما صوت بشرى كالأنين، ثم أخذ يتعالى كالاستغاثة المكتومة.

صرخ على من الرعب واستدار مطلقاً ساقيه للريح، ثم توقف على بعد مسافة قريبة تسمح له بمراقبة ما سيحدث لأحمد، وهل سيستطيع الوصول إلى الصف الآخر عند تُربة أبو سويلم أم لا، لكنه أشفق عليه من المغامرة فصاح بأعلى صوته: إرجع يا أحماااد !

حاول أحمد أن يتماسك متشبثاً بآخر ما يملك من قدرة على التحدى، مقاوماً دافعاً أقوى بداخله للرجوع، وأنفاسه تتلاحق وكل جسده يرتعش. عاد الصوت البشرى عالياً وهو يردد كلمات غير مفهومة. استطاع أن يفسر من بينها: أن عايشه.. مامُتّش.. ساعدونا!

رأى فى ضوء القمر الفضى امرأة عجوزاً بيضاء الشعر نحيلة كهيكل عظمى ملفوف بكفن أبيض، تزحف خارجة من باب مقبرة وسط الركام الذى كان يسد فتحتها.. أصابته رعدة مزلزلة وشعر بالشلل، حاول أن يصرخ مستنجداً فاحتبس صوته ثم غاب عن الوعي.

أفاق بعد فترة لا يدري مداها، ليجد العجوز جالسة إلى جواره تحاول إفاقته، أو شك أن يغيب ثانية عن الوعي، وفجأة برق فى ذهنه أنه رأى هذا الوجه من قبل.. اكتشف أنه للخالة زكية بانعة الليمون والجرجير التى ماتت ودُفنت ظهر اليوم. لقد رأى الناس

يصلون عليها فى الجامع صلاة الجنازة وجسدها داخل النعش، وقيل إنها تجاوزت الخامسة والتسعين من عمرها، سمعها تطمئنه بكلمات تخرج مهشمة من فمها الأهم:

- ما تخافش يا بنى.. أنا خالتك زكية.. أنا لسة عايشة !

- لأ.. أنتى ميتة.. همّ دفنوك النهاردة.. أنتى العفريتة بتاعتها ! (ثم أضاف

متوسلاً بصوت مرتعش) والنبي يا خالة.. سيبيني أروح !

- يا بنى أنا مش ميتة.. أنا صاحية قدامك أهه.. هم افتكروا إننى ميتة..

غسلونى وكفنونى وأنا غايبة عن الدنيا.. صحيت لقيت نفسى جوه التربة.. قعدت أفحت

بايديا لحد ما فتحت فتحة وشميت هوا.. ساعدنى يا بنى أرجع البلد !

اقتربت منه وأمسكته بيديها المعروقتين، فأحس بأنهما قبضتا عزرائيل، فغاب

ثانية عن الوعى.

(4)

أفاق على ضجة صاخبة، وجمع كبير من أهالى القرية يحملون الفوانيس

والكشافات الكهربائية، حمله بعضهم فى لهفة وهم يقولون: سليم الحمد لله، وحمل

بعضهم الآخر الخالة زكية ملفوفة بكفنها، والجميع يهللون ويكبرون قائلين: معجزة

إلهية!.. شى لله يا شيخه زكية !

فى الطريق إلى القرية كان الموكب يتضاعف حتى بدا وكأنما لم يبق أحد فى

بيته، الهتافات تتعالى، والكل يحاول أن يلمس المرأة بأصابعه حتى ينال البركة، والشباب

يمسكون بهواتفهم المحمولة ويلتقطون الصور لها فى سرعة كالحمى..

ما هى إلا دقائق حتى كانت الصور تنتشر على شبكات التواصل الاجتماعى

مشفوعة بإعلان المعجزة للميت الحى.. والشيخة المبروكة تفيق من الموت وهى أعتاب

الأعوام المائة من عمرها. وجاءت سيارة إسعاف من المركز، وبها طبيب وضع خراطيم

المحاليل فى ذراع العجوز.. أحضر الأهالى أطباق الأطعمة لتناول بعضها، حذرهم

الطبيب من إطعامها لأن معدتها خاوية وقد انطبقت جلدًا على عظم، وفسر ذلك بأنها لم تتناول الطعام منذ أيام، وربما كان ذلك هو سبب غيبوتها.

تسابق الأهالي لاستضافتها في بيوتهم، كل منهم يدعى أنها الأقرب إليه، وتساءل أحدهم عن أبنها الوحيد.. فتعالت الأصوات مستكرة وغاضبة لأنه ولد عاق.. هجرها بعد أن أخذ منها كل شيء حتى بيت أبيه الذي يأويها بعد أن باعه من وراء ظهرها مستغلاً احتفاظه بأوراقه، وقالوا أنه الآن زعيم عصابة يحترف البلطجة وهارب من تنفيذ أحكام بالسجن.. ظهرت فجأة زوجة الإبن الغائب، وهي تجر طفليها وتصرخ:

- حرام عليكم!.. والله كل اللي بتقولوه عليه إفترا.. حسبي الله ونعم الوكيل!
جوزى دلوقتي في السجن بعد ما قبضوا عليه ظلم، وإن شاء الله حياخذ البراءة ويرجع لأولاده وامه.

اختلف الناس بين مصدق ومكذب لروايتها، فيما أعلن الرجل الذي كان يؤجر لزكية دكاناً صغيراً بمنزله بإيجار شهري قيمته جنيه واحد، بأنه الأحق باستضافتها ونيل بركتها، وأصر على عودتها إلى الدكان الذي كانت تتخذه سكناً حتى وُجدت ميتة بداخله.

قبل أن ينتصف نهار اليوم التالي كان مراسلوا الصحف ووكالات الأنباء والقنوات الفضائية ينتشرون في القرية الصغيرة التي لم يسمع بإسمها القراء والمشاهدون من قبل، يتسابقون لتصوير الشخة زكية وتسجي كلماتها، ويجرون الأحاديث الصحفية والتلفزيونية مع المحيطين بها وأولهم صاحب البيت الذي يوجد به الدكان، وتقاطر وجهاء القرية للفوز بالظهور في القنوات الفضائية و للإدلاء بآرائهم، وهم يتبارون في ذكر كرامات الشخة زكية منذ سنوات وسنوات، وقال أحدهم أنها كانت "ترقى" المرضى فيتم شفاؤهم، وذكر آخر بأنها كانت تظهر في مكانين في نفس اللحظة لأنها "من أهل الخطوة"، وأنها لا تقبل إحساناً من أحد وتكتفى بما يرزقها به الله من بيع الليمون والجرجير.. لكن الرزق كان يأتيها واسعاً من حيث لا تحتسب.. وأعلن الأعيان من

أثرياء القرية أنهم سيكرّمونها بإعداد شقة خاصة لإقامتها وسيتكلفون بمصاريف معيشتها وعلاجها، فيما تردد بين الأهالي أن ثمة مفاوضات تجرى سرّاً بين أحد الملاك وبين جهة ما من خارج القرية، لشراء شقة على الطريق الزراعى، وأنه يتم تجهيزها لغرض لم يُعلن عنه، وإن كانت قد تسربت تكهنات بأن لذلك علاقة بالشيخة زكية، قد يكون الغرض هو عمل مؤسسة خيرية باسمها.

(5)

مرت الأيام والأسابيع، وطوى النسيان موضوع الشيخة زكية إلا قليلاً، كما نسى أعيان القرية وعودهم لها، إلا من بعض فضلات موائدهم يرسلونها إليها، وأحياناً يطمئن عليها صاحب البيت الذى يقع به الدكان بين غدوه ورواحه، لكن جيراناً قريبين من الدكان لمّحوا إلى أنها تلقت فى الفترة الماضية تبرعات مالية كبيرة بآلاف الجنيهات من أهل الخير الذين جاءوا من بلاد بعيدة، وتهامس آخرون بأن صاحب البيت كان يستقبلهم فى بيته موضعاً لهم أنه الذى يقوم على رعايتها والإنفاق عليها، فى تلميح إلى أنه ربما يكون قد احتفظ لنفسه بهذه الأموال.. والله أعلم !

وفى ضحى أحد الأيام جاءت إلى القرية إحدى القنوات الفضائية الشهيرة بمذيعتها اللامعة التى تتميز بتقديم حلقات جريئة من واقع حياة الفقراء فى المناطق العشوائية والمحرومة، وتسليط الضوء على بعض الشخصيات من سكانها، ومساعدتهم بتبرعات مقدمة من أهل الخير، وكانت المذيعه قد سبق لها تقديم حلقة عن الخالة زكية بعد اكتشاف عودتها إلى الحياة، وفى هذه المرة حضرت مع طاقم القناة لاصحابها إلى شقتها الجديدة التى أهداها إليها واحد من أهل الخيل. وانقلبت القرية لتدشين هذا الحدث الكبير، وتزاحم الأهالي أمام الدكان الذى تقيم فيه الخالة زكية حتى سدوه، وبات من الصعب على سيارة القناة الفضائية شق طريقها بينهم، لكن المذيعه نجحت بصعوبة فى اختراق الجموع والوصول إليها وإبلاغها بالخبر السعيد، وراحت تسألها عن مشاعرها بعد معرفتها به، وقام مساعدوها - بالتعاون مع بعض الأهالي - بحملها إلى السيارة فى

صحبة المذيعة، ثم التوجه معها إلى مكان الشقة الجديدة، والكاميرا تصاحبها في كل حركاتها وسكناتها، وجموع الأهالي يلاحقون السيارة ويهللون، والنساء تطلق الزغاريد، والبعض سبق الموكب إلى الشقة على "الزراعية" لانتظار افتتاح الحدث السعيد، وهناك راحت المذيعة تتحرك مع الشيخة زكية وهي تسندها بذراعها وتتجول معها داخل الشقة الصغيرة المدهونة بطلاء زيتي حديث وتضاء بالكهرباء وتحتوى على ثلاجة وبوتاجاز وسرير وأنتريه ومروحة وكل شئ، ثم تقوم بتسليمها عقد ملكية الشقة وتطلب منها الحرص عليه كحياتها، فيما تقوم الكاميرا بتصوير العقد والشيخة زكية تمسكه من جانب والمذيعة من جانب آخر.

والغريب أن الشيخة زكية كانت تسير على قدميها بمنتهى الحيوية وكأنها استردت شبابها، وتجيب على أسئلة المذيعة وهي تستعيد ذكرياتها البعيدة بذاكرة قوية، وراحت تدعو للمذيعة طوال الوقت بالستر قائلة:

- يا بنتى هو أنا حاعيش تانى عشان أتهنّى بكل ده؟!!

(6)

لم يطرأ تغيير على حياة الشيخة زكية فى شقتها الجديدة إلا الشعور بالخوف من أن يأتيها الموت وهي وحيدة.. فلا يعرف بموتها أحد، على عكس ما حدث عند وفاتها الأولى، وضاعف من هذا الشعور تدهور صحتها حتى العجز عن الحركة وعن خدمة نفسها، أو استخدام الأدوات الكهربائية والبوتاجاز فى الشقة لعدم تعودها عليها، ولم يعد يزورها إلا القليل من أهل القرية الذين يأتون إلتماساً للبركة أو طلباً لأن تدعو لهم بنجاح مساعيهم، متحملين مشقة السير على الأقدام مسافة كبيرة بين القرية وشقتها الكائنة على الطريق الزراعى، حتى باتت تشعر بتقل مرور الأيام وبأن الحياة عبء لا طائل وراءه، وتمنت لو لم تعد إلى الحياة بعد إعلان موتها ودفنها، وشجعها ذلك على التجاوب مع ما أبدته زوجة ابنها من مودة نحوها، ومن حرص على زيارتها للاطمئنان عليها، متوسلة

إليها أن تسامح زوجها وتدعو له أن يخرج الله من محبسه، فرقت لحالها وأعطتها مفتاح الشقة كي تدخل كل صباح وتطمئن عليها.

حتى فوجئت القرية في صباح أحد الأيام بزوجة ابنها تعلن اختفاءها.. أسرع الجيران إليها وهي تقف أمام باب الشقة وتصيح في هلع بأنها دخلت عليها الشقة اليوم فلم تجدها بداخلها ولا في أى مكان آخر !

قامت قيامة القرية من جديد وراح الكل يبحث ويتقصى دون جدوى، وترددت أقوال بأن ابنها الهارب قد حضر ليلاً وأخذها إلى مكان مجهول، حتى تموت ليرث الشقة والعطايا المالية التي حصلت عليها بعد أن بعثت من الموت، وعزز هذا القول ما أضافه البعض عن سماعه إشاعة تزعم أن ابنها ظهر وأخذ يحوم حول القرية ليلاً منذ عدة أيام، فاتجهت أصابع الاتهام نحو امرأته، مما عرّضها لاستجواب بالغ القسوة، خاصة وأنها الوحيدة التي تحتفظ بمفتاح الشقة.. وبكت المرأة ولطمت خديها وهي تدعو على نفسها بأن يسخطها الله قرداً لو كانت قد رأت زوجها المودع الآن في السجن، وأخذت تحتسب إلى الله من ظلمهم، وفيما أسرع البعض الذي لم يصدقها لإبلاغ الشرطة والنيابة حتى تتخذ إجراءتهما ضدها، كونها الشخص الوحيد الذي له مصلحة من موت الشقيقة، كان الرأي العام للقرية يتبلور متجهاً نحو اعتبار أن ما حدث هو "الكرامة" الثانية والأخيرة للشيخة زكية، حيث يتجلى الآن بغير لبس كونها وليّة من أولياء الله الصالحين، ولا بد أنها ارتفعت إلى السماء مع الشهداء والقديسين !

وتعالت الدعوة لبناء ضريح يليق بمقامها، وأعلن أحد كبار الملاك في القرية التبرع بقطعة أرض يقام عليها، وأعلن آخرون استعدادهم للمساهمة في تكاليف البناء، واقترح غيرهم إقامة "مولد" لها لم تشهد له المنطقة مثيلاً.

ومن بعيد كانت تتعالى صيحة لأحدهم:

- مدد يا شيخة زكية.. مداد...د....

عايده

(1)

وصل "محمود علم الدين" إلى مكان القصر بجاردن ستي، سأل عدداً من المارة واليوابين بالمنطقة عن مكانه فلم يعرفه أحد. أخيراً قال بواب نوبى عجوز:
- يمكن تقصد الجامعة الشعبية.

تذكر محمود أن هذا كان اسم الثقافة الجماهيرية من قبل، فطلب من الرجل شرح العنوان له واسرع إليه بلهفه فى ضحى ذلك اليوم القائظ من شهر يوليو..
قال له مدير القصر ذو الصلعة العظيمة اللامعة تحت المصباح المسلط على مكتبه، بعد أن قدم إليه خطاب نقله إلى هنا من قصر الثقافة بيور سعيد:
- لكن حتعمل إيه هنا؟. عندنا مشرف فنى.. وهو فنان كبير ما بنشوفوش إلا نادراً. كفاية فنانيين !

فكر محمود أن المدير على وشك الإحالة إلى سن المعاش.. فما الفرق بالنسبة له بين وجودى وعدمه؟.. قال له:
- أقدر أقوم بأى عمل تسنده إليّ.

- عندنا بعض هواة الرسم، الاستاذ حمزة سلمان بيدرس لهم، حنعمل إيه بمدرس جديد ؟

خيم الصمت برهة، كان المدير خلالها يراجع حساباته فى حالة رفضه تسليم الشاب عمله وهو يحمل خطاباً رسمياً من الوزارة. قرر أخيراً اختيار الطريق الآمن:
- طيب.. على كل حال حنسلمك العمل، وبعدين نشوف حنعمل إيه.

أشّر بإحالة الخطاب إلى المدير الإدارى ووجه محموداً للذهاب إلى مكتبه ليسلمه الخطاب.

(2)

حضر فى المساء إلى القصر ليلتقى بالفنان حمزة سلمان. كانت أمنيته منذ كان طالباً بكلية الفنون الجميلة أن يتعرف عليه، فهو معجب بأسلوبه الفنى من خلال ما شاهده من لوحات منشورة له ببعض المجالات، ولم يسعده الحظ برؤية إحداها مباشرة، وسمع الكثير عن غرابية شخصيته ورفضه عرض أعماله فى قاعات وزارة الثقافة، بالرغم من أنه موظف قديم بها، لكنه لا يكف عن مهاجمتها ومهاجمة كل المسؤولين فيها بل وفى البلاد جميعاً، وأغلب الظن أن كافة الأجهزة وجدت فى بقاءه لوحده فى هذا المكان المغمور مع بعض الهواه على مدى سنين طويلة أفضل وسيلة للخلاص من مشاكله، مما أعطاه الوقت للتفرغ فى مرسمه الخاص وممارسة الرسم الصحفى والكتابة حول الفن فى بعض المجالات الثقافية.

لم يحضر "الأستاذ حمزة" فى هذا المساء، كان الدارسون جميعاً من السيدات وأغلبهن فوق الخمسين، يوحى مظهرهن بأنهن من شرائح برجوازية وأرستقراطية غربت شمسها، فاحتفظن بطلاء من "الشيكاكة" مثل طبقات المكياج الكثيفة على وجوههن.

قدم نفسه إليهن، وجَّهن إليه نظرات حذرة غير مرحبة بوجوده كأنه دخيل عليهن، سألته عما إذا كان قد قابل "الأستاذ"، فقال إنه جاء الليلة لهذا الغرض، عرف منهن أنه يأتى أساساً يوم الأحد، وأحياناً يأتى فى بعض الأيام الأخرى، من خلال حديثهن عنه فُهم أن بينهن وبينه عشرة عشرة ممتدة منذ سنوات بعيدة، وأنه - على عكس ما يقال عنه - لطيف وحبوب، لكن مع من يفهمه ويقدره.. كان على "محمود" أن ينتظر إذن إلى الأسبوع القادم حتى يقابله. فكر بينه وبين نفسه: أى ورطة وضعتُ نفسى فيها بالمجئ إلى هنا!.. هل تركت العمل مع الفلاحين والبسطاء والشباب فى القصور التى عملت فيها بالأقاليم مؤمناً بدور الفنان فى المجتمع، كى أكون هنا بين مجموعة من ربات البيوت جئن هروباً من ملل الحياة المترفة؟.. ماذا يفعلن غالباً - لثلاث مرات أسبوعياً عبر سنوات ممتدة - غير الثرثرة والنميمة وحديث الموضة والمطبخ؟!.. لكن: هل كان

أمامى خيار آخر؟ لقد أردت العودة إلى العاصمة، كى أبحث عن فرصة للتحقق كفنان بعد تجربة مجهضة دفعتُ ثمنها منفيًا بالريف لسنوات، لم أقم معرضاً واحداً للوحاتى ولا حتى استطعت المشاركة فى المعارض الجماعية بالقاهرة، فأصبحت إسماً مجهولاً وطاقة مجمدة، وحصولى على وظيفة كهذه فى القاهرة كان أشبه بالمعجزة فلم يكن بوسعى النكوص عنها مهما كان الثمن.

وجد محمود فى هذا مبرراً للتكيف مع الوضع الجديد مهما كان عدم رضاه عنه، ووجد أن نقطة البداية هى ألا يتصادم مع "الأستاذ حمزة" ومن ثم مع تلميذاته، مع اندهاشه لاقتصار عضوية المرسم على السيدات دون الرجال. قال:

- على فكرة.. أنا مش جاى بديل عن الأستاذ حمزة.

سألته إحداهن بجرأة: طيب حتعمل إيه معنا ؟

- إعتبرونى زميل لكم إذا حببتم.

شاع الارتياح فى القاعة، واقترب بعضهم حتى صنعن حلقة صغيرة حوله، وانطلق الحديث وتشعب فى غير موضوع واحد.

(3)

فى ركن منعزل من المرسم رآها، كان يلاحظ وجودها منذ حضوره، وهى ترسم بعيداً فى صمت، أو تتابع الحديث الدائر بين زميلاتها وبينه، وبياض بشرتها يصنع تضاداً مع سواد فستانها، وشعرها القصير جداً (آل جارسون) يكشف عن عنق ناصع يطل على صدر ناهض متحدياً زحف أزمة منتصف العمر.. وقف أمام لوحاتها التى ترسمها بالفحم على الورق "طبيعة صامتة"، حيث وُضعت أمام المجموعة بضعة أوانٍ فخارية يسلط عليها ضوء ساطع.

بادرته قبل أن يفتح فمه:

- أنا إسمى عايده.

رحب بها وعرفها باسمه. كان يتوقع أن تسأله عن رأيه فى رسمها، لكنها سألته:

- تعرف الأستاذ حمزه ؟

عبر لها عن إعجابه بفنه، سألته عن رأيه فى شخصيته، فقال:

- ما قابلتوش لغاية دلوقت، لكن سمعت كثير عن غرابة أطواره!..

إلتقت نحوه باهتمام واضح مشجعة إياه على الإفضاء بما سمعه عنه، كان واضحاً له أن اهتمامها به أكثر من مجرد تلميذة بأستاذ.. قال:

- سمعت أنه متعجرف.. مغرور.. معقد.. يبحث عن الإثارة باللجوء إلى تصرفات غريبة.. وهكذا..

أطرقت وهى تعبت بقطعة الفحم حتى كادت تتفتت بين أصابعها. ثم قالت:

- يمكن يكون كل اللى قالوه عنه صحيح.. لكن.. ما حدش قال لك أنه جواه قلب طفل وروح شاعر.. وطائر خايف دائماً من الصياد؟

- طيب ازاي يجمع بين كل المتناقضات دى ؟

- يمكن المظاهر السلبية دى تكون صدقة من العضم بيستخبى جواها عشان تحمى كيانه الضعيف.

- سمعت أنه بيتلذذ أحياناً بالسخرية من إنسان ضعيف بيسعى إليه عشان يتعلم منه فيفقدته الثقة فى نفسه.. ما بقولش إن ده رأى على أى حال.

صمتت طويلاً ثم قالت وعيناها فى عينيه:

- مش حتقدر تخدعنى لما تقول إنك ما تعرفوش.. أنت مين؟

كان كلامها يعنى أتفاقها مع ما سمعه عنه، ويعنى فى الوقت ذاته أنه ينبع من منطقة شائكة بأعماقها تجمع بين الهيام والألم !

(4)

منذ هذه اللحظة صارا صديقين، فى الوقت الذى حاول كسب ود المجموعة من خلال رؤية رسومهن وإبداء ملاحظات تشجيعية لهن بدون محاولة اتخاذ سَمْت المعلم، بل كان دائماً يؤكد ما قاله سابقاً بأنه لن يكون بديلاً للأستاذ.

وجدت عايدة الشجاعة يوماً كى تفتح قلبها أمامه، كانا يجلسان فى شرفة المرسم ذات الضوء الخافت، اعترفت له بحبها لحمزة، وأنه فى البداية شجعها على المضى فى عاطفتها نحوه، وكانت فى حالة شديدة من الضعف واليأس، وجاء هو كيد امتدت لإنقاذها، لكنه أخذ بعد ذلك يتباعد تدريجياً، ثم تجده يوماً يقبل عليها فى لهفة ويدعوها إلى شرب الشاي فى "الأمريكين" بالقرب من مرسمه، وتتوقع أن يدعوها بعد ذلك إلى المرسم لمشاهدة أعماله التى كان يحدثها عنها، لكنه لا يفعل، حتى يأتى الوقت الذى يتحتم عليها العودة إلى بيتها فينصرفان كلٌّ إلى بيته، وحين تلقاه بعد ذلك فى مرسم القصر يبدو وكأنه نسى كل شىء، بل قد تجد منه فظاظة أكثر مما يعامل بها زميلاتها!

سألها محمود:

- هل حاول إنه يساعدك أو يساعد غيرك للاشتراك فى المعارض العامة.
- لا..
- ما جابش لكم بعض الكتب الفنية وفرجكم على اتجاهات الفن الحديث ؟
- لا.. لأن علاقته بالمكان علاقة موظف بوظيفة تضمن له مرتب من الوزارة لا أكثر..
- مش شايفه أنه أنانى بعض الشئ ؟
- هو مش إنسان عادى، دا فنان كبير عنده مشروع أهم منا ومن الوزارة اللى عايزة تدفنه هنا كنوع من العقوبة، ومش منتظر منه بعد كده إنه يتحمل مسئولية الآخرين.

- لكنه أصبح بالفعل مسئول عنكم.. ومع ذلك هو فين؟.. مظهرش للأسبوع
التانى ولا مرة واحدة، أنا حتى مش قادر أقابله وأعرض المساعدة عليه. أنا عندى أفكار
ممكن ننفذها سوا.

خيمت عليها سحابة من الحزن والحرج وأطرقت دون أن تقول شيئاً. شعر محمود
بتعاطف شديد معها، وبأنه لا يستحق حبها، قالت وكأنما قرأت أفكاره:

- أنا مش عايزة منه حاجة.. على الإطلاق، ولا حتى إنه يبادلنى مشاعرى.. أنا
ست متجوزة وعندي أولاد ولا يمكن أخون جوزى.. وماليش طموح فى حاجة.. يمكن
يكون عندي شعور مؤلم بالوحدة.. لأن العلاقة شبه مدمرة بينى وبين جوزى وما
بيربطناش غير وجود الأولاد.. وحتى لو انفصلنا مش حاقدر أدخل تجربة جواز تانيه..
لكن.. إن يكون فيه إنسان حقيقى بيهتم بيك.. ثم تكتشف أنه سراب..

لحظات الصمت تمر ثقيلة، نازفة بالألم، تمنى محمود ألا تقول المزيد من فرط
شعوره بالعجز أمام ألمها، لكنها استأنفت بصوت متهدج يقاوم الرغبة فى البكاء:

- أنا آسفة.. أكيد أنت شايفنى ضعيفة.. أو مراهقة.. أو إنسانة فاضية.. أنا مش
كده والله.. لكن.. إزاي حاعيش لو انكسرت مرة تانية؟.. أنا عشت الفشل فى حياتى
وشربت الكاس لآخره.. إزاي حاشربه تانى؟!

قال مواسياً إياها:

- الحقيقة ده مش عدل.. إنتى تستحقى أحسن من كده بكثير.. أنا آسف جداً.

نظرت إليه بامتنان وهى تدارى دموعاً تترقق فى عينيها. قالت:

- تعرف؟.. على قد ما ارتحت لك.. حاسة بأنك بقيت مشكلة بالنسبة لى..

- أنا ؟ .. إزاي ؟

- لأنك السبب فى عدم رجوعه، حاسة إنه مش حيرجع تانى !

قال منزعجا: وانا عملت له إيه ؟

- لأنه عرف بنقلك للقصر.. وتصور أنها مؤامرة ضده لإبعاده عن المكان.
- لكن ده غير حقيقي دا حتى المدير كان رافض نقلى هنا.. لكن أنا كنت حابب أنى أكون جانبه.. وأتعلم منه.
- عارفه.. لكن.. دى طبيعته.. دايماً يشعر أن العالم ضده.. بيتآمر عليه.. تصور؟.. لقيته مرة بيلمح لى بأنه بيحك فى أنى أكون دسيسة عليه تنقل كلامه للمباحث.. وهو فى قرارة نفسه عارف أنى بالذات آخر إنسان فى الوجود ممكن يعمل كده. ثم يجى بعدها يعتذر لى.. وبعدين يرجع يتهرب منى.. وهكذا.
- والحل؟.. هل تقترحى إنى أبعد عن القصر وأبحث عن مكان تانى ؟
- قالت بلهفة: لا.. أرجوك.. أنا محتاجه لك.

خيم الصمت عليهما.. قاوم رغبة فى أن يقول لها: وأنا كذلك !

(5)

مضت الأيام ولم يظهر حمزة فى القصر، وممرت حالة من الكآبة على المرسم ورواده، خاصة عايدة، حاول محمود أن يبدها بالحديث إلى العضوات عن المدارس الفنية المختلفة وهو يفرجهن على ما وجده فى مكتبة القصر من كتب الفن أو على ما فى مكتبته الخاصة، ويوما بعد يوم أخذ يبدي ملاحظاته لهن حول رسومهن، وهن يستمعن إليه فى اهتمام شديد وكأنهن يكتشفن لأول مرة عالماً جديداً لم يعرفنه من قبل، وأن هناك من يعرفهن بقيمة ما يعملن، وأخذه الحماس يوماً فأمسك بقطعة الفحم وراح يصحح النسب والتكوين والظلال لإحدى العضوات، فبدا الإشراق والتوازن على اللوحة بقوة، وهو ما دفع غيرها إلى طلب مساعدته بالمثل.. وشجعهن على رسم لوحات من الخيال بعيداً عن الطبيعة الصامتة والبيورتريه اللذين اعتدن عليهما، وحظى المرسم بحالة من الحيوية والنشاط، وأصبح هناك هدف قوى لانتظام العضوات فى الحضور فى كل

الأيام المحددة للمرسم بعد أن كانت قد كثرت حالات التغيب عن الحضور.. واشتعلت المنافسة بينهم حين أخبرهن بحصوله على وعد من المدير بإقامة معرض لأعمالهن فور توفر العدد الكافي من اللوحات، وأنه وعد كذلك بإعداد البراويز بالخشب والزجاج على نفقة القصر لكل اللوحات.

وكاد الجميع ينسين أمر الفنان حمزة، وقد يأتي ذكره أحياناً على ألسنة البعض فيُقلن (من باب العشرة) أنه أوحشهن، ثم ينسينه ويواصلن العمل بنفوس منشرحة، وترددت مداعبات وضحكات لم تكن تسمع في المرسم من قبل.

كانت عايدة تراقب ما يحدث بمشاعر متناقضة بين الإندماج في الحالة الجديدة - خاصة وقد قامت برسم لوحات بألوان الجواش تختلف عما اعتادت رسمه من قبل، فنالت إعجاب الجميع - وبين الاكتئاب إلى درجة الخروج إلى شرفة المرسم في حالة أختناق وهي تبحث عن نسمة هواء تسترد بها أنفاسها، فيلحق بها محمود مدركاً سبب الأزمة، ويحاول بكل السبل التسرية عنها، والحديث معها عن أن الحياة أكبر من الوقوف عند تجربة واحدة أو شخص واحد مهما كانت أهميته، وقال لها مرة:

- أنا شايفك نموذج رائع للوحة نفسى أرسماها وأتقدم بها إلى مسابقة المعرض العام. حاكون متفائل جداً بأن اللوحة دى حتكون صاروخ أدخل بيه الحركة الفنية !
أعاد هذا الإطار الإبتسامة إليها، فدخلت المرسم لتكمل لوحتها بحيوية.

(6)

في نهاية حصة الرسم قبل الثامنة مساءً، همست عايدة لمحمود بأنها تريده أن يوصلها إلى شارع القصر العيني لتركب من هناك إلى بيتها.

تضاربت مشاعره بين السعادة والاضطراب، بدون أن يعرف ما إذا كان ذلك مرتبطاً باحتمال أن تعبر عن مشاعرها الخاصة نحوه، أم إلى أنه بدأ حصر اللوحات

التي سيقام بها المعرض وأخذ مقاساتها لإعداد البراويز اللازمة لها.. كان أقرب إلى تغليب السبب الثاني، قائلاً لنفسه أنه لا يعلق شيئاً خاصاً على دعوة عايدة، فبالرغم من انجذابه إليها بأكثر من كونها امرأة جميلة ورقيقة، حيث أن الأهم بالنسبة له هو روحها البريئة السخية بالحب والعطاء، فإن ثمة استحالة لقيام علاقة بينهما، ليس لكونها امرأة متزوجة وأماً فحسب، أو لوجود فارق سنّي بينهما، حيث تكبره بحوالى خمسة عشر عاماً، بل فوق ذلك كونها لا تزال متعلقة برجل آخر، حتى لو كان غير أهل لحبها، ومع ذلك.. فإنه، فى قرارة نفسه، كان يتمنى - بل يتوقع - أن يحدث الاحتمال الأول.

سارا معاً فى الطرق نصف المضاءة بحى جاردن ستى على مهل.. ظلا صامتين وكل منهما ينتظر الآخر أن يبدأ، أخيراً بدأت هى متحدثة عن صفاته الجميلة التى أعادت إليها الثقة فى الحياة والفن وجعلتها تعيد النظر فى أشياء كثيرة.. ثم سكنت.. ودقات قلبه تتعالى بقوة، متوقفاً أن تنطق بالكلمة الفاصلة.. وإذا بها فجأة تنخرط فى نحيب حار.. وضع يده على كتفها فى حنان قائلاً:

- مالك يا مدام عايدة؟

تركت يده على كتفها وتمالكت نفسها وهى تقول بين شهقاتها:

- أنت حنين قوى يا محمود.. يا بختها اللى حتكون شريكة حياتك !

شجعه ذلك على احتوائها بذراعه قليلاً وسألها:

- طيب إيه اللى حصل ؟

عادت إلى الصمت وقد توقف بكاؤها تماماً. قطعتة قائلة:

- أنا عارفه إنك بتحبنى.. ودا اللى معذبنى.. مش عارفه أعمل إيه؟..

ومش ممكن أعمل زى حمزة وأسيبك تحبنى وأنا مستمتعة بأنى محبوبة.. وأنا

عارفه إن ارتباطنا مستحيل يحصل.. لأنه ما ينفعش.. ما ينفعش!

سحب محمود ذراعه عن كتفها وهو يشعر وكأنها لطمته على خده. لم يجد كلمات يرد بها عليها بينما يسرى نزيف الكرامة المجروحة فى دمه.. فجأة انفجر يضحك ضحكات هستيرية وهو يقول: أنا؟ .. أنا بحبك؟ .. أنا؟..

انتقلت عدوى الصدمة لجرح كرامته إلى عايده، فعادت إلى البكاء وهى تقول:

- ما تسخرش منى ومن حبك يا محمود.. الحب أنبل شئ فى الوجود.. ومش بإيد الإنسان يمنعه.. صدقنى لو كنت قادرة أحبك كنت أعلنت ده مهما حصل.. ليه بتضحك؟.. أنا لو كنت أنانيه كنت خليتك تعيش دور الضحية زى ما أنا عايشه..

وكلما تحدثت تمادى محمود فى ضحكه الهستيرى حتى تحول من تصنُّع الضحك كما بدأ، إلى حالة لا يستطيع أن يوقفها بإرادته، وهو فى قرارة نفسه لا يعرف لماذا يضحك.. لقد تعدى الأمر الثأر لكرامته الرجولية، إلى أنه فى موقف عبثى لا يعرف كيف يخرج منه.. جففت عايدته دموعها على عجل، ومدت يدها تستوقف أول سيارة أجرة تمر بها. أسرعت إليها وركبت وأغلقت الباب دون أن تنتظر خلفها.

وقف محمود وحيداً فى الطريق الخالى من المارة.. توقفت ضحكاته مخلِّفة طعماً يشبه طعم الدماء فى الفم بعد خلع الضرس.. مضى فى ببطء وهو يقاوم الشعور بالغثيان.

الزهريّة المهشمة

فى "الأنترية" البسيط المكون من طقم الكراسى الأسيوطى، جلس جابر عبد الواحد وأمامه فوق المائدة المستديرة الواطئة "كالطبلية" مجموعة من التحف التقليدية التى اقتناها خلال زيارته ورحلاته إلى دول وأماكن شتى، كباحث فى المآثورات الشعبية والحرف التراثية، مشاركاً فى المؤتمرات والفعاليات الدولية المتصلة بذلك، أخذ يمسح الغبار الذى يغطيها، ويلمّع ما لحق بها من صدأ، ثم ينهض ليعاين الأماكن التى تتناسب كل قطعة فوق الجدران أو الرفوف أو فى أركان الحجرتين الصغيرتين، أو فى الطرقة الممتدة على شكل زاوية قائمة، وهى تكوّن جميعاً كل مساحة الشقة التى ستصبح محل استقراره الدائم.

هنا ستكون القطع الفضية من الهند وأفغانستان، وهنا ستكون العلب الخشبية المطعمة بأسلاك النحاس من باكستان، وهنا سيضع طاحونة الهواء الخزفية بلونها السماوى مع الكحلى من هولندا، وهنا مكان القوارير الزجاجية بالنفخ من جزيرة مورانو الإيطالية، وهنا مكان الأوانى والأطباق الخزفية الملونة بالأزرق فوق الأبيض من تونس، وبجوارها صوانى وفناجين القهوة المزخرفة والقناديل المخرمة والمشكاوات من المغرب، وفوق هذه الكنبة ستكون بعض المفارش والحشايا الهندية المزينة بدوائر المرايا ذات الإطارات الجلدية وفصوص الزجاج وخيوط التطريز، وفوق هذه القاعدة الخشبية فى الركن توضع مجموعة العرائس الإندونيسية بأزيائها القومية لكهنة وأميرات، وفى ذلك الركن يمكن وضع مجموعة الخناجر من غرناطة بمقابضها وأغمادها المطعمة بالفصوص الملونة، وفوق ذلك الدولاب الصغير توضع مجموعة الأباريق والأكواب والصوانى الفضية القادمة من مراكش... أما المجموعات المصرية، من خزف وخيامية وكليم وعلب خشبية مطعمة بالصدف وقطع النسيج من أخميم وأطباق الخوص الملونة من النوبة وغير ذلك، فمكانها حجرة المكتبة بجانب الأقفعة الخشبية من السنغال والعرائس الملونة من روسيا بأحجامها المتدرجة.. وقد كان حلمه منذ سنوات أن تتحول

هذه الشقة بعد انتقالها للإقامة فى الشقة الجديدة، إلى وعاء لمجموعة متحفية إثنولوجية صغيرة للمنتجات التراثية للشعوب، تعبر عن عاداتها وتقاليدها.. لكنه بدلاً من ذلك يعود إليها اليوم للإقامة الدائمة فيها وحيداً لأول مرة.

عليه الآن أن يعيد ترتيب جميع أمور حياته من جديد.. هو قادر بكل تأكيد على ذلك.. هكذا قال لنفسه.. لكن المشكلة الوحيدة أنه يرى صورة "غفت" فى كل مكان بالشقة، يراها جالسة أمامه فى الأنترية تتابع التلفزيون، أو واقفة تطهو الطعام فى المطبخ، أو قائمة على ترتيب مكتبه فى حجرة المكتبة، أو مسترخية فى حجرة النوم تقرأ المصحف فى استغراق كامل وهى منفصلة عن العالم، أو رائحة غادية من الطرقة إلى إحدى هذه الحجرات ليل نهار.. فهناك عشرون عاماً أمضيها معاً منذ تزوجا فيها ولم ينفصلا إلا فترة السفر أو السجن.. عاشا معاً أيام العُسر وأيام اليُسْر، أيام فصله من العمل وليالى سهرة مُنكباً على القراءة وعلى تأليف كتبه، وهى ساهرة إلى جواره تقدم إليه أكواب الشاي وأطباق السندوتشات، عاشت أيام سجنه وهى تقضى الليالى وحيدة وتقضى النهارات متنقلة بين مكاتب المحامين وجلسات المحاكم وزيارات السجن، مشاركة فى حملة لإطلاق سراحه هو وزملائه، تشد أزرهم وتنقل إليهم أخبار حملة الدفاع عنهم خلال زيارتها إليه، وهى تحمل غيارات ملابسه التى غسلتها وعلب الأطعمة التى سهرت تطهوها طوال الليل له ولمن معه.. كما شهدت الشقة لقاءات الأصدقاء وأمسيات الشعر والمناقشات السياسية المحترمة أو السرية الهامسة المحاطة بالغموض والخوف من الشرطة، وسهرات الاحتفال بالمفرج عنهم التى كثيراً ما أحيها الفنان الشيخ إمام والشاعر أحمد فؤاد نجم بأغانيهما الثورية كرفاق جمعتهم الزنازين..

لقد تركاها حقاً منذ عدة أعوام للانتقال إلى شقتها الجديدة فى مساكن التعاونيات، التى اشتراها بالتقسيت عن طريق النقابة، بعد أن دفع مقدمها لها من نصيبه فى ميراث أبيه بعد وفاته، وتركها فى البيت القديم نفس أثاثه المتواضع مع المكتبة بكاملها وأغلب المقتنيات الفنية لتكون نواة للمتحف الذى حلم به.. لكن أهم ما بقى بها فى الحقيقة هو

ذكريات حياتهما الاستثنائية فى كل شبر منها، فكيف يمكن أن يواصل الحياة فيها وحيداً هذه المرة، حتى ولو كانت العلاقة بينهما قد انتهت إلى طريق اللاعودة؟!!

بدأ فى توزيع مقتنياته الفنية على الأماكن التى تخيلها فيها، فإذا "بعثت" تقفز أمامه لتقترح أماكن بديلة، بنفس هدونها وصوتها الخافت الرزين بغير استبداد بالرأى، مجرد اقتراح مهذب لا تصر عليه، وإن كانت تثق بأنه سيأخذ به فى النهاية ولو بدأ هو برفضه.. تداعت إلى ذهنه صور أسفارهما معاً: إلى إسبانيا وإيطاليا وتركيا وغيرها، وكيف كانا يسيران بالساعات يتأملان الناس والأماكن والمتاحف، متوحدين كروح واحدة انقسمت فى جسدين، كان يسافر بدعوات من الجهات المنظمة للمؤتمرات والمهرجانات أو من وزارة الثقافة المصرية، لكنه كان يعمل على توفير نفقات سفرها معه، وهى تمنع تقديراً لظروفه المادية بعد سنوات عجاف عاشها على الكفاف، لكنهما كانا يشعران فى النهاية بأنهما أغنى الناس إذ يعيشان كل لحظة جميلة حتى الثمالة، فلا يباليان بما أنفقا وبما تبقى للشهر القادم.

شعر بعدم القدرة على مواصلة ترتيب المقتنيات، فعاد إلى مجلسه فى الأنتريه، وراح يقرب النظر بين القطع المتراحمة فوق "الطبلية" والمتراحة فى الأركان.. وقع بصره على طبق فخارى كبير يضم فتات زهرية (فازه) خزفية مهشمة تماماً.. ياااه!!.. تذكر أنها كانت هديتها إليه فى أحد أعياد ميلاده، اختارتها لمعرفتها بشغفه بالأشكال الغريبة وغير العادية، وقد شدّها إليها ملمسها الخشن وتشققاتها الظاهرية بما يشبه الفسيفساء، ما يجعلها تبدو نتيجة أخطاء تقنية فى الحريق، لكنها وقعت يوماً على الأرض وهو يزيل التراب عنها بمهفة من الريش، فخانتته يده فى لحظة فقد فيها الإنتباه إليها.. يومها انقبضت نفسها متشائمة وكتمت مشاعر الحزن بداخلها.. وعدّها بترميمها، وكان صادقاً فى وعده، وحاول بالفعل غير مرة، لكنه فشل لصعوبة لصق عشرات القطع الصغيرة ومتناهية الصغر وجعلها تتماسك فى بعضها البعض فوق فراغ مجوّف بدون أساس يبني

فوقه القطع المفتتة، ثم أخذته الأيام والمشاكل المتلاحقة وهو يؤجل البحث عن حل لترميمها، حتى نسي أمرها تماماً.

أخذ يجرب تجميع قطع "الفازة" بشكل أقرب إلى ممارسة لعبة (بازل) بغير نيّة جادة لترميمها، بينما تتدفق في خاطره ذكريات الفترة الأخيرة من علاقتهما قبل لحظة الانفجار المفاجئة، حين عاد إلى البيت فوجدها قد جمعت كل ملابسها من حُلّ وقمصان وغيارات داخلية - حتى الجوارب - من دولاب الملابس بحجرة النوم ونقلتها إلى حجرة مكتبه وكدستها فوق الكنبه الكبيره، كإعلان عن قرارها برفض إقامته معها بالحجرة أو بالبيت.. كان جرحه أقرب إلى الذبح المباغت، ولم يحدث ذلك في الحقيقة فجأة، بل سبقته أسابيع من القطيعة بينهما حتى بالكلام وهما يعيشان تحت سقف واحد، كان خلالها يشعر بأنه ضحية غيرتها وهواجسها وظنونها التي تحولت إلى يقين لا يقبل الشك أو المناقشة بأنه يخونها.. واستنفدت طاقته وأعصابه وقدرته على الاحتمال في مناقشات عقيمة، ولم يشفع له أى قَسَم مغلّظ بأنه لا يحب غيرها ولا أساس لكل ما يسيطر عليها من أوهام، وكل مبرراتها لا تزيد عن بروده العاطفى تجاهها وانشغاله الدائم عنها وانطلاقه إلى الخارج يومياً ليلتقى بأصحابه وصاحباته مُتهرباً من اصطحابها معه كما كانا يفعلان طول السنين الفائتة، فإذا بقى فى البيت يوماً التزم الصمت وكأنما مات الكلام بينهما، ولم يكن لكل ذلك إلا تفسير واحد عندها؛ وهو وجود امرأة أخرى فى حياته، واعتبرت دخوله البيت متأخراً فى إحدى الليالى وفى يده وردة يقدمها إليها، دليلاً على محاولته خداعها مدعياً أنه اشتراها من أجلها، وهى فى الحقيقة - كما أكدت له - هدية أهدتها إليه تلك المرأة.. فمنذ متى - هكذا قالت - كان يشتري الورد من أجلها؟.. إنها مجرد خدعة يغطى بها خيانتة !

يعترف الآن - بينه وبين نفسه - بأنه انصرف عنها خلال تلك الفترة، ليس مع امرأة أخرى كما تظن، بل لأنه كان يمر بحالة من عدم التصالح مع نفسه، وشعوره بأنه لم يحقق شيئاً من أحلامه ككاتب أو سياسى، وكان يرضيه الشعور - بشكل خاص -

بخيانه بعض رفاق النضال، حين اكتشف أنهم يلعبون سراً فى الفناء الخلفى للنظام الفاسد من خلال أشخاص فى الحزب الحاكم، ويدعون علناً أنهم جزء من القوى الثورية المعارضة للنظام، ما جعله يشعر بأن كفاح السنين وأيام السجون راحت عبثاً، فوق شعوره المتزايد آنذاك بالمطاردة له من جهات أمنية كمعارض سياسى، وأصبح يؤلمه ما يجده من صعوبة فى نشر كتبه وأبحاثه ومقالاته، وهو ما لم يكن يواجهه وهو شاب فى ظل الحصار والكبت فترة حكم السادات، وتزامن ذلك كله مع اقترابه حثيثاً من سن الستين مع بداية سنوات الألفية الجديدة.. لكل ذلك كان مدفوعاً بقوة نحو حالة تشبه الإكتئاب وعدم الرغبة فى الإفضاء لأحد بما يعتمل بداخله، حتى لعفت، التى كان كل ما يعينها هو التربص به وملاحقته لإثبات تورطه متلبساً بالخيانة، وكلما ازداد شعوره بحصارها له ازدادت الفجوة اتساعاً بينه وبينها، حتى سيطر عليه اقتناع بأن أفكارها الأساسية تغيرت بعيداً عن القناعات المشتركة السابقة بينهما حول الاهتمام بالشأن العام وقضايا التقدم وإصلاح البلد، لتتحصر إهتماماتها فى دائرة ذاتها الفردية كامرأة وزوجة، بنفس مفاهيم النساء السطحية والمتخلفة، وتحولت إلى شخصية عنيدة مستبدة لا تعرف التفاهم، وكأنها امرأة أخرى لا يعرفها !

ألا يحتمل أن يكون تغييرها الذى شعر به، قد دفعه إلى التوجه نحو نساء غيرها قد يجد لديهن ما افتقده لديها؟.. يعترف جابر مرة أخرى بأنه انجذب نحو امرأة أو أكثر، وارتفع التقارب مع بعضهن أحياناً إلى مستوى الإعجاب المتبادل، كان يحاول الهرب من زحف الاكتئاب نحوه، لكنه لم يتجاوز إلى أبعد من ذلك فى الحقيقة، وهو ما يؤكد الآن انفضاضهن من حوله بعد انتشار خبر انفصالهما، على عكس ما كانت تتوقعه عفت.

رغم كل شئ لم يبلغ الأمر بالنسبة له حد التفكير فى الانفصال، كل ما وصل إليه بعد قيامها بإلقاء ملبسه خارج حجرة النوم، هو التفكير فى الابتعاد قليلاً عن البيت، لعل النفوس تهدأ وتعيد هى التفكير فى موقفها، فقرر الانسحاب بهدوء إلى الشقة القديمة، وأخذ بعض احتياجاته فى حقيبة وترك لها خطاباً مقتضباً يخبرها بأنه هناك،

داعياً إياها لإعادة النظر فى مواقفها بهدوء أكثر وباحترام متبادل، ومع الخطاب ترك مبلغاً مالياً لتدفع منه قسط الشقة باسمها، بعد أن نقل ملكيتها إليها حتى تشعر بالأمان، نظراً لأنها لم تنجب، ولديها مخاوف من أن تجد نفسها بغير مأوى لو وافاه الأجل قبلها، وتمسك أهله بحقهم فى الميراث على حد قولها، ومن ثم فقد استجاب لرغبتها ونقل ملكية الشقة إليها، وكان ذلك قبل الأزمة بينهما بسنوات !

حتى كان اليوم الفاصل حين ذهب إلى البيت ليأخذ بعض الأغراض عقب أيام من مغادرته وحاول فتح الباب بالمفتاح، فاكتشف أن "الكالون" تم تغييره، ودق الجرس مراراً فلم يفتح أحد، فأدرك أنه لن يدخل هذا البيت ثانية..

عندما ساقه تيار الذكريات إلى هذه الواقعة استولى عليه من جديد نفس الغضب الذى شعر به وهو واقف أمام باب الشقة مذهولاً عاجزاً، وجاره يخرج من شقته عارضاً عليه أن يستضيفه حتى تعود "المدام" من عملها، ثم يقول مواسياً: "كل شئ حيثصلح إن شاء الله !.. كان لا بد أن يفرغ الآن شحنة الغضب العارمة فى أى عمل عضلى شاق، فأتى بطاقتى الفضيّات المغربى الذى انطفاً بريقه من أكسدة الجو، وراح يدعكه بالملح والليمون بكل طاقة العنف والغضب بداخله، وكلما يظهر بريق الفضة يضاعف من قوة دعكه ويشعر بانفثاء شحنة الغضب، فيواصل عمله وهو يعلم أن الأوانى الفضية سرعان ما سوف تعود لتتأكسد ثانية، فعلاجها ليس بالملح والليمون، بل بغمرها فى حمّام الفضة، لكنها أصبحت لامعة على أية حال، وإن لم تبلغ لمعان الأصل، وشعر بالرضا عما فعل، فاسترخى فى مقعده شابكاً يديه خلف رأسه.

بدأ جابر يفكر بطريقة هادئة وفى مسار مختلف، وقد تذكر اليوم الذى أصرت أن تصاحبه وهو نازل من البيت لحضور اجتماع إحدى اللجان، واعتقدت أنه يكذب عليها، والحقيقة - عندها - أنه ذاهب إلى موعد (معها).. وإزاء تأكيده على أنه ذاهب إلى اجتماع لجنة رسمية أصرت على أن تصحبه لترى بنفسها، رفض غاضباً نزولها

معه وخرج فعلاً من باب الشقة، فلحقت به عند أول السلم وهي بملابس البيت قائمة في تصميم أرعن: حانزل معاك يعنى حانزل!.. رجلى على رجلك!

وجد نفسه الآن يضحك وهو مضطجع شابكاً يديه تحت رأسه، فكر في هذا الموقف الطريف قائلاً لنفسه: ماذا لو كان وافقها على النزول معه بهذه الملابس! ثم استدرك في حوارهِ الذاتى: ولماذا سمح أساساً للموقف أن يصل إلى هذا الحد العبثى وهو يعلم أن الأمر تحول بداخلها إلى عقيدة راسخة بأنه يخونها؟.. لو أنه استجاب منذ البداية لرغبتها فى الخروج معه، حتى ولو كان الموعد لاجتماع رسمى.. ألم يكن ذلك سيبيد هواجسها ويعيد ثقتها فيه؟

وقعت عينه على الزهرية المحطمة، وبدون أن يخطط لشيء راح يحاول تركيب قطعها كأنه يتسلى، فيما يتواصل المونولوج بداخله متسائلاً: هل كانت تكرهه حقاً حين ألفت بملابسه خارج حجرتها وحين غيرت كالون الشقة وحين أصرت على الطلاق؟.. كان واثقاً بأن ذلك آخر ما تصبو إليه، فلم تعرف حياً غيره، ولم تعرف الحياة والعالم إلا من خلاله.. إذن.. فماذا حدث؟.. هل هى أزمة اكتئاب ومحاولة للانتحار المعنوى؟.. هل تملكها الشعور بالظلم لآزدرائه لمشاعرها وكرامتها فتحولت إلى الإنتقام بهذه العدوانية؟.. لكن.. هل فعل هو ذلك حقاً..؟

قام جابر وأحضر أنبوبة اللصق، وأتى بورقة مقوّاه وراح يقوّسها فى شكل يشبه الآنية، لتكون حاملاً يسند القطع التى يلصقها، وبدأت ملامح الفأزة فى الظهور تدريجياً من أسفل إلى أعلى وكأنه يعيد بناءها بعد وضع الأساس، وبدأ الجدار المنتفخ فى الارتفاع قليلاً قليلاً، وهو يبحث بتركيز شديد عن القطع الخزفية الناقصة لوضعها فى مكانها الأصلي، وكلما ازداد الارتفاع إلى مستوى جديد يتصاعد إحساسه بالنجاح والفوز، ولم يبال بالشروخ والثغرات الدقيقة فيما بين القطع بسبب فقدان بعض الفتات من حواف الشقوق الفخارية، وقال لنفسه: لا بأس.. سوف يعمل فيما بعد على ملئها ببعض

المواد الملونة بنفس ألوان الفازة، وعلى كل حال فإن هذه التشققات تتماشى مع شكلها الأصلي حين أهدتها عفت إليه.

أخيراً وضعها أمامه وأخذ يتأملها من زوايا مختلفة، كنهات أنتهى لتوه من صنع تمثال وهو فخور بما صنعه، وأيقن جابر بأنه أتى بمعجزة دون أن يخطر بباله ماذا سيصنع بها.. لكن ما انتقص من شعوره بالفخر وجعله يقف عاجزاً أمام الفازة، هو نقص قطعة فى حجم عقلة الإصبع من جسمها بعد أن استخدم جميع القطع الموجودة من هيكلها الأصلي.. لكنه لم يسمح لهذا الجزء الناقص بأن يفسد فرحته بما صنع، مدركاً أنه ليس بوسع إنسان أن يعيد ما انكسر إلى ما كان عليه بالتمام والكمال..

وعندما وقف بعد قليل تحت الدش البارد، كان يشعر بأن روحه قد انتعشت وصفت من أى ضغينة تجاه عفت، وأنه قادر على التسامح مع أى فعل فعلته، بدون أن يرتبط ذلك بأية خطوة عملية قد يخطوها فى المستقبل.

الخط الحريرى

عندما قرأ خطاب الدعوة الموجهة إلى وزارة الثقافة المصرية الخاص بترشيحه لحضور مهرجان قرغيزستان للتراث الشعبى، وعرف منه أن مكان إقامة معرض الحرف التقليدية المصرية الذى سيصاحبه هو متحف لينين، تملكته الدهشة، فقد مضت سنوات على استقلال هذا البلد المسلم عن الاتحاد السوفيتى عقب تفكيكه، مما زاد حماسه لتولى مهمة "قومسيير" المعرض المسندة إليه، فما هى ظروف الانسان هناك وعلاقته بكل من الشيوعية التى سقطت ومن الاسلام الذى ينتسب إليه نظرياً؟ وما دلالة إقامة الاحتفال بتراث الشعوب فى مكان يرتبط بمؤسس الاتحاد السوفيتى والحركة الشيوعية؟

فى الصباح التالى لوصول "صلاح الدين" إلى العاصمة "ألما - آتا" ذهب إلى متحف لينين وبدأ يفتح صناديق المعروضات المرسله من القاهرة، لم يجد من يساعده، توجه إلى مكتب مديرة المتحف لطلب المساعدة، وفى طريقه إليه عبر القاعات والممرات والأبهاء الرحبة لم ير أى أثر من آثار الدولة الشيوعية السابقة، الجدران خالية من أية لوحات أو حتى صور فوتوغرافية عن تاريخ البلد وأهله وطبيعته، لا وجود لأية شواهد على أن هذا المكان متحف أصلاً، وتساءل بدهشة: أى متحف هذا بلا مقتنيات ولا تاريخ ولا ملامح؟!.. فكر أنهم ربما قاموا بإخلاء المبنى من معروضاته لإقامة أجنحة معرض تراث الشعوب فيه. لكنه لم يلاحظ وجود أية أجنحة لدول أخرى غير مصر، قرر أن يسأل المديرية فى هذا الأمر.

استقبلته فى مكتبها سيدة جميلة فى أوائل الأربعينيات من عمرها، ذات وجه مستدير ذى مسحة مغولية، يقارب الملامح الشائعة بهذه المنطقة المجاورة للجزء المغولى من الصين، قامت تستقبله باحترام شديد وبحفاوة جمّة سَعِدَ بها، أخبرها عن مطلبه فنهضت على الفور وهى تقول: سأكون معك.

أخبرها صلاح بأن كل ما يطلبه بعض العمال وأحد المساعدين الفنيين لتنسيق العرض، قالت: لا تحملهما.. سأقوم بتنفيذ كل ما تطلبه منه، شعر بارتياح لحديثها بالانجليزية بلهجة مفهومة، لكنه لم يفهم مقصدها تماماً فسألها:

- تقصدين أنك ستشرفين عليهم أو تقومين بالترجمة بينى وبينهم ؟
- لا لا.. سأشتغل معك بنفسى.. لأنه ليس لدينا فى هذه الأونة من يقوم غيرى بالأمور الفنية.. إطمئن.. فلدى خبرة قديمة فى هذا المجال.

- وماذا عن أجنحة بقية الدول؟.. هل ستستطيعين القيام بها جميعا ؟
- لا توجد أجنحة أخرى غير جناحك.. فبلادكم هو الوحيد الذى استجاب للدعوة !

تكاثرت علامات الاستفهام أمام صلاح، لكنه قرر الاكتفاء مؤقتاً بما عرفه، وشرع فى العمل والمديرة تساعده، حتى باستخدام أدوات النجارة لفتح الطرود الخشبية وتخليص المعروضات من أكوام القش وأوراق الصحف وقطع البلاستيك الملفوفة بها حماية لها من الكسر.. سألها..

- دائماً تعملين وحدك ؟
- ليس دائماً.. المسألة أنه ليس هناك ما نعمله.. كما ترى فقد أزيلت كل التحف التاريخية والمعروضات الفنية من المتحف بعد الاستقلال، لأنها تعبر عن ماض ليس ماضينا وتاريخ ليس تاريخنا.. وما زلنا نبحث الآن عما يمثلنا حقاً ليحل محل ذلك الماضى.

- لكننى رأيت تمثالاً هائل الحجم لـ"لينين" قائماً أمام المتحف !

- نعم.. لأن المتحف يحمل اسم لينين.

- ولماذا لم تغيروه.. إلى "المتحف الوطنى" مثلاً؟

رفعت قامتها وتوقفت عن العمل وهى تتنهد، وصمتت برهة قبل أن تقول بصوت خفيض وحذر:

- هذه مشكلة.. فهناك من يدافع عن الوضع القديم وعن لينين كرمز للثورة.. نحن الآن فى مرحلة انتقالية.. لم نحدد بعد من نحن.. وما طريقنا للمستقبل ! لدينا مشكلات كثيرة جداً.. نحتاج إلى وقت طويل لحلها. وأسرعت بتغيير الموضوع، فقالت بابتسامة عريضة أضاءت وجهها الذى أكسبه المجهود حمرة وردية خفيفة طفت على لونه الأصلى المائل للصفرة:

- هذه المشغولات الفنية رائعة.. أحبها جداً.. مصر بلد جميلة.. لى فيها شئ عزيز.. أعز شئ فى حياتى.

ترى غير فاهم مقصدها، سألتها: هل زرت مصر من قبل ؟

- لا للأسف.. لكنى أعرف الكثير جداً عنها من خلال ما حكاه لى صديقى.

- هل كان صديقك يعمل هناك ؟

- لا.. ولكنه....

وقطعت استرسالها وهى تقلب قطعة من الخزف بين يديها بدون أن تنظر إليها حقيقة، فقد سرحت بعيداً وخيم عليها الوجوم ثم قالت على عجل:

- دعنا الآن نعمل.. فيما بعد سوف أحكى لك..

(2)

واصلت "مانيا" العمل بحماس كبير مع صلاح لإتمام فرش المعروضات، كانت سريعة الحركة موفورة النشاط، تروح وتجيى وهى لا تأنف من القيام بأعمال خشنة مثل حمل قواعد خشبية ثقيلة، أو تحريك قطع أثاث، أو تنظيف الأتربة عن المعروضات، أو

حتى القيام بكنس المكان وإخلائه من قش الأرز وأوراق الصحف ومخلفات الشحن، كانت السعادة تشع من عينيها الضيقتين وهى تقول:

- هذا أول نشاط حقيقى يقام بالمتحف منذ الاستقلال، أنا دعوت التلفزيون ليصور حفل الافتتاح الذى يتم فى الغد، ودعونا كل الشخصيات المهمة.. وزيرة الثقافة، مديرة الجامعة، الصحفيون، السفراء، شيخ الإسلام.. سوف يكون حفلاً رائعاً، وسوف تكون أنت النجم فيه.. لدينا بعض المدرسين المصريين يعلمون الطلبة اللغة العربية وأصول الإسلام، لكن الجامعة تشكو من عدم وجود أساتذة متخصصين فى الأدب العربى وفى الثقافة الإسلامية.. أتمنى أن تهتم بهذا الأمر عندما تعود إلى مصر، وأن تساعدنا على فتح خط للطيران يربطنا بكم، فنحن ننتقل بين ثلاث طائرات عند سفرنا كما تعلم..

ضحك صلاح قائلاً:

- من تظنينى حتى أقوم بذلك؟.. أنا مجرد كاتب وباحث فى التراث لا يملك سلطة.. على كل حال أعدك بأن أكتب عن ذلك بعد عودتى..

انتبهت فجأة باهتمام بالغ وهى تسأل: أنت تكتب فى الصحف؟

أكد لها ذلك، فسارعت تقول: ليتك تستطيع أن تساعدنى..

أنتظر أن تكمل موضحة نوع المساعدة التى تريدها، لكنها صمتت، ثم قامت تواصل العمل وقد تلاشت ابتسامتها وعاد الوجوم يكسو ملامحها.

(3)

على مائدة الغداء الذى دعاها إليه صلاح بالفندق، سألتها عما كانت تود أن تحدثه بشأنه عندما عرفت بأنه كاتب صحفى، لم تجب.. طلبت منه أن يقوم - بعد انتهائهما من تناول الغداء - إلى بهو الفندق، جلست على كنية هناك، فيما جلس هو

على الكرسي المقابل لها. فتحت حقيبتها وأخرجت حافظة للصور التذكارية وأخذت
تقلبها، ثم طلبت منه أن ينتقل للجلوس إلى جوارها وهي تقول باسمه: سأريك شيئاً.

اختارت صورة لفتى طويل القامة فى حوالى السابعة عشرة يقف إلى جوارها فتبدو
قمة رأسها عند كتفه.. كانت ملامحه تحمل مسحة رجولية مبكرة بلمسة مختلفة عن
الملاح الصينية لأبناء المنطقة.. قال صلاح: إبنك ؟

هزت رأسها بشعور بالزهو.. ثم قالت: ألم تلاحظ شيئاً ؟

- بشأن ماذا ؟

- بشأن ملامحه.

- فعلا هى مختلفة عن ملاح أبناء شعبيكم.. كيف كان ذلك ؟

- لأن أباه مصرى (وصمتت برهة ثم واصلت) ألم أقل لك أن لدىّ فى بلدكم

شيئاً عزيزاً جداً على؟.. إنه أبوه..

حاول صلاح أن يستوعب المفاجأة ثم قال بحفاوة:

- رائع!.. ليتنى أتعرف عليه.. هل يعمل هنا فى (ألما - آتا) ؟

هزت رأسها بالنفى. سألتها: هو فى مصر الآن ؟

صمتت وهى تقلّب فى الصور.. مرت فترة قبل أن تعرض عليه إحداها..

كانت لشاب مصرى بزى الطيران العسكرى.. قالت: هذه صورته.

- هو طيار.. أليس كذلك ؟

أجابت بنعم.. سألتها: إذن هو الآن ضابط بسلاح الطيران المصرى؟

- لا أعرف!..

استمر الصمت فترة، وتحرّج عن توجيه أسئلة أخرى إليها لإحساسه بوجود مشكلة كبيرة فى علاقتهما، واصلت بصوت خفيض ينساب بنعومة كخيوط من الحرير، وهى مطرقة تعبت "بألبوم" الصور:

- لم أره منذ أنهى دراسته فى أكاديمية الطيران فى قاعدة كازاخستان المجاورة لنا، وسافر إلى مصر على أن يرتب أموره هناك ثم يدعونى للحاق به.. لم يكن يعلم - ولا أنا - بأننى حامل فى إبنه.. انتظرت دعوته طويلاً فلم تصل، كتبت إليه كثيراً على عنوانه فى القاهرة الذى أعطانى إياه، فلم يرد ولا مرة.. أبلغته فى خطاباتى بأننى حامل وأريد أن أضع طفلى فى مصر.. لم يرد.. ذهبت إلى السفارة المصرية فى كازاخستان وسألتهم عنه فقالوا إنهم لا يعرفون شيئاً عنه، أبلغتهم بأننى سألد قريباً ولا بد أن يعرف، فقالوا ليس فى يدهم شئ.. فكرت أن أسافر بنفسى إلى القاهرة وأصل إليه فى عنوانه، ثم تراجعتم لعدم تأكدى من صحة العنوان، بدليل عدم رده على خطاباتى، ولا أعرف أحداً بمصر، وليس لبلدى سفارة فيها، ولا أتوقع من السفارة الروسية بالطبع أن يساعدونى.

فى هدوء وصمت كانت دموعها تتساب على خديها.. واصلت:

- سميت "نادر" .. بالإسم الذى ذكره لها أبوه يوماً وهو يحلم بإنجاب طفل منها حين يتزوجان.. إنه يشبهه تماماً.. أليس كذلك؟..

ووضعت أمامه صورتي الأب والأبن ولاحظ شدة الشبه بينهما بالفعل. قالت برقة بالغة كانسياب صوت الحرير:

- كان جميلاً.. حنوناً.. شجاعاً.. لم أعرف رجلاً مثله.. لا قبل لقائى به أو بعد رحيله.. تمنيت أعيش معه العمر كله.. هو بالنسبة لى كل أهلى.. والداى هنا تخليا عنى.. قالوا هذه مشكلتك.. وأنت رفضت نصيحتنا فى البداية.. قالوا إنهما كانا واثقين بأنه لن يفى بوعوده.

مسحت دموعها وقد تعكر صفاء عينيها وقالت معتذرة:

- أنا آسفة لأننى أحملك بمشكلتى.. لكن المشكلة الآن ليست خاصة بى أنا.. المشكلة فى نادر.. إنه مؤمن تماماً بأنه سيجد أباه، ويحملنى المسئولية لمساعدته فى البحث عنه، إنه يعشقه، ويحمل صورته معه دائماً ويفخر بها أمام زملائه، ويلتمس الأعدار له بأنه رجل عسكرى ولا يسمح له عمله بالزواج من أجنبية، والآن هو مصمم على الإلتحاق بنفس أكاديمية الطيران التى درس فيها أبوه، ولن يُسمح له بذلك إلا بعد إثبات هويته، فهو بحكم الأب مصرى، وبحكم الجنسية قرغيزى.. وأنا لا أعرف ماذا أفعل..

سألها صلاح: هل استعلمت عنه لدى الجيش المصرى ؟

- حاولت.. لكن السفارة المصرية فى كازاخستان نصحتنى بالألا أفعل لو كنت حريصة على مستقبله.

- كيف ؟

- قالوا إنها مسألة أمن قومى.. وسوف تكون لديه مشكلة خطيرة لو علم الجيش بعلاقته بأجنبية، وقد يودى ذلك إلى فصله من الجيش.. ونادر يعلم ذلك جيداً لكنه لا يفهمه ولا يقتنع به.. لو كنا أيام وجود الاتحاد السوفيتى لكان يمكننا أن نجد حلاً، أما الآن فإن قرغيزيا نقطة معلقة فى الهواء بلا قوة أو هوية.. البعض نصحونى أن اتجه إلى الأزهر.. فنحن بلد إسلامى ولو شكلياً.. إذن فالحل فى الشريعة.. هكذا قال لى شيخ الإسلام فى "ألما - آتا"، بشرط إثبات الزواج بعقد أو بشهود، لذلك لم أسر فى هذا الطريق لأنه مسدود بصخرة.. فأنا لا أملك عقد زواج، لأننا لم نكن تزوجنا بعد، وكان الاتفاق أن يتم ذلك بمصر.

(4)

عاد إلى متحف لينين لاستكمال تنسيق المعرض.. كانت طاقة الحماس لدى كليهما قد فترت كثيراً، حاول صلاح تغيير الموضوع بالحديث عن جماليات كل حرفة من الحرف الممثلة فى المعرض وأسلوب تنفيذها والأماكن التى تشتهر بها فى مصر،

وحاولت "مانيا" كذلك أن تندمج معه وهى تستفسر عن بعض الخامات والتفاصيل، لكن بدا له أن شيئاً غليظاً يجثم على أنفاسها، راح يرقبها بدون أن تنتبه ولا يستطيع أن يمنع نفسه من الإنجذاب نحوها.. ليس إشفاقاً عليها، بل احتراماً لما تتمتع به من صفات؛ هذا الإخلاص الأسطوري، وهذه العاطفة التى لم تقتلها خيانة حبيبها ومرور الزمن، ووجد نفسه تلقائياً يقارن بينها وبين زوجته التى صممت على الانفصال حتى نالته بعد ربع قرن من علاقة كان يضرب بها المثل فى تحدى كل الظروف، ثم تحطمت على صخرة غيرة مجنونة تلبّست كيانها دون أن يكون هناك مبرر حقيقى لظنونها !!

أخذ تحول جديد يطرأ على نظرتة لمانيا؛ ماذا لو عرض عليها الزواج والإقامة معه فى القاهرة ليقىما هناك حياة جديدة، ليس فيها مكان لوالد ابنها الهارب أو لوالدة ابنه بعد أن فقد كليهما؟

أقبل نحو "مانيا" بوجه بشوش وهو يثنى على ذوقها فى تنسيق المعروضات ولم تبق غير لمسات أخيرة هنا وهناك.. طلب منها أن يجلسا للحصول على قسط من الراحة بعض الوقت.. يلح عليه خاطر بأن يبادرها برغبته.. لكنها سبقته قائلة بعد أن اتخذت مجلسها:

- قلت إنك سوف تساعدنى.. هل ستفعل؟

- طبعاً..

قالها بلا تفكير وهو يشعر ببرودة فى أطرافه، قالت متلهفة:

- إذن ستكتب مقالاً عن الموضوع أو تستدل على مكانه حتى أذهب إليه؟

أدرك أنها وضعت كلمة النهاية للقصة قبل بدايتها!.. تصنّع ابتسامة وهو يقول:
بالطبع.. فقط إعطى عنوانه الذى لديك ليكون نقطة أبدأ منها الوصول إليه..

قامت من مكانها وطبعت على خده قبلة خاطفة وهى تشكره بامتنان، فتراجع عن أن يسألها السؤال الذى كان يلح على خاطره:

- هبى أنك استطعت الوصول إليه.. هل تظنين أن ذلك يمكن أن يعيد وصل
خيط الحرير الذى انقطع بينكما منذ ثمانية عشر عاماً ؟

ضربة شمس

وقف أسامة عثمان حائراً أمام سيارة النقل، لم يجد له مكاناً فى الكابينة الأمامية المزدوجة، بعد أن سبقه إليها أعضاء فوج المرسم فاحتلوها جميعاً، تخيل أنهم لعبوا لعبة الكراسى الموسيقية!.. كان قد تأخر عنهم قليلاً أثناء زيارته لمقبرة تحتمس الثالث مع المجموعة فى ضحى ذلك اليوم القائن بوادى الملوك فوق جبل القرنة بالبر الغربى للأقصر، وهو عائد يبحث عنهم والشمس تقترب من التعامد على الأرض وتصب عليها لهيبها، بالرغم من أن شهور الصيف لم تبدأ بعد.. لم يكن أمامه مكان إلا الصندوق الخلفى المكشوف للسيارة، فقفز إليه وجلس مُسنداً ظهره إلى جدار الكابينة، بدون إبداء تبرمه من عدم انتظارهم لحضوره، وهم يعلمون أنه خارج لتوّه من أزمة صحية حادة. أطل من النافذة صديقه القديم طارق - رئيس الفوج - وهو يبدي استعداداه بفتور للتنازل له عن مكانه، وكان أسامه على ثقة بأنه غير جاد فى عرضه الذى يبدو نوعاً من "برو العتب"، فشكره قائلاً: لا بأس بهذا المكان.. توكل على الله يا أسطى.

كان يقدر أن هذه السيارة هى كل ما أمكن لقصر الثقافة هنا توفيره لفوج الفنانين الذى تستضيفه هيئة قصور الثقافة ضمن برنامجها لمرسم الأقصر، فلها الشكر على أى حال.. وقال لنفسه أن التعب سرعان ما يزول ويُنسى أمام متعة العيش أياماً بين عقب التاريخ وبكارة الواقع المُعاش بصوره الملهمة للإبداع، وهم الآن ذاهبون لزيارة بعض القرى القريبة من محافظة قنا، بكل عالمها الغرائبى وجماليات عمارتها الفطرية التى سمع عنها الكثير، وفكر أسامة بأن هذه الزيارة تمثل الوجه النقيض لزيارة الصباح للمقبرة الفرعونية، لتخلق مفارقة بين الماضى والحاضر، وبين عالم الموتى وعالم الأحياء، ويا لها من إشارة إلى امتداد البعد الحضارى، كفيلة بإلهامه رؤية تعبيرية لأعمال جديدة !

كان الطريق طويلاً إلى قرية "البلاص" التى يقصدونها، وشمس مايو العمودية تنذر بصيف قارى، وهى تقدح رأس أسامة طوال الطريق، تشاغل عن ذلك بالفرجة على

مناظر القرى على الجانبين، فرحاً بتحرره من الملاحقة الأمنية التي يعانى منها فى القاهرة بسبب نشاطه الحقوى ومشاركته فى لجان كاشفة للفساد، البيوت الطينية ذات الإطارات الشبكية أو الزجاجية فى أعلى حواف جدرانها المبنية بجرار (بلاليص) الفخار الوردية وهى تطل من بين كتل الطين، المصاطب الملتصقة بالجدران أمام الأبواب خالية من الجالسين، الأطفال عراة يلقون بأجسامهم فى التربة الضحلة هارين من هجير الشمس، أبراج الحمام على شكل مكعبات طينية مربعة تختلف عن أشكال الأبراج فى الوجه البحرى وقد تساقط طلاؤها الجيرى الأبيض عبر مستويات تحددها أفاريز طينية بارزة، صفوف القواديس المفتوحة فوق الأفاريز تبدو كعيون أسطورية وقد عُرسَتْ فى أسفلها غصون جافة متعرجة كى يقف الحمام فوقها، لكنها تخلو الآن من أى طير..

(2)

وصلوا إلى قرية مليئة بالأبراج الشبيهة بأبراج القلاع القديمة، استهواه شكلها وأراد أن يرسم بعض الاسكتشات منها، فنقر على النافذة الزجاجية الفاصلة بينه وبين السائق حتى أطل "طارق" من النافذة الأمامية مستفسراً، طلب منه أسامة أن ينعطفوا يمينا لدخول القرية، فيما يشعر بنقرات صداد خفيفة داخل رأسه، لكنه لم يأخذ أمرها بجدية.

تقدموا فى شوارع القرية ودروها، وترجّلوا عن السيارة وراحوا يتجولون بين عطفاتها وبيوتها وأبراجها، لاحظوا بدهشة حُلُوها تماماً من البشر بل حتى من الحيوانات أو أى مظهر للحياة، توقعوا أن يكون الرجال سارحين للعمل فى الحقول، وأن النساء والأطفال يحتمون بالظل داخل البيوت من وهج الشمس، لكنهم لم يجدوا أى علامة تدل على ذلك. قال السائق - وهو من أبناء المنطقة - أن أغلب السكان هاجروا من القرية وتفرقوا بحثاً عن الرزق فى جهات مختلفة بعد أن ضاقت بهم سبل العيش، بعضهم سافر للعمل فى دول نفطية، والبعض نرح إلى القاهرة أو إلى مدن أخرى يعملون فى مهنة المعمار أو كباعة جائلين أو كبوابين للعمارات، بعد أن فقد العمل فى الزراعة جدواه وازدادت أيام البطالة كل أسبوع، لم تكن الشوارع والبيوت وحدها التى بدت خالية،

بل كذلك جميع أبراج الحمام المنتشرة فى القرية، قال السائق أن أسراب الحمام هلكت جميعاً بفعل المواد الكيماوية التى كان يستعملها الأهالى لمقاومة الآفات المستشرية فى زراعات القمح والفول والعدس والبرسيم وغيرها من المحاصيل فى هذه المنطقة طوال العام، وكانت تعيش عليها الطيور فى مواسم الحصاد، ولم تعد الآن تجد من يضع لها الحبوب فى الأبراج كما كان الحال قديماً فى وجود أصحابها.

دخلوا مبنى مهجوراً من بوابة هائلة تُركت مواربة.. وجدوا أنفسهم وسط فناء متسع لبناء كبير على شكل مربع، تطل عليه مجموعة من الأبراج الشاهقة، وتتوسطه ظلمة مياه جوفية، أسرع إليها أسامة متلهفاً وقد شعر بعطش شديد وبالحاجة إلى أن يبلى وجهه ورأسه لتخفيف الصداع الزاحف بقوة، وجدها معطلة، لاحظ وجود زيرين كبيرين من الفخار فى أحد الأركان لإرواء ظمأ العابرين فيما يبدو، أسرع إليهما فوجدهما فارغين وجافين تماماً، بما يشير إلى أنهما على هذا الوضع منذ فترة طويلة، احتمى مع زملائه من الشمس، بالوقوف تحت العقود نصف الدائرية البارزة بمسافة متر عن واجهات الأبراج، وهى محمولة فوق أعمدة سميكة من الطوب النيى، ذكّر شكرها بمبنى وكالة الغورى المجاور للجامع الأزهر، أحب المكان لهذا السبب، ولشعوره بقدومه الذى يوحى بأنه أثر معمارى يعود إلى زمن سحيق ربما إلى عصر المماليك، وتخيل أنه شهد أحداثاً تاريخية باتت مجهولة، وليس مجرد مبنى لتربية الحمام البرجى، فقد كان للمماليك شأن فى الصعيد أيضاً.

(3)

مر بذاكرة اسامة مبنى شبيه بهذا فى طفولته بالقرية، بناه تباعاً أجداده وأسلافه القدماء كما سمع من والده، وكان يطلق عليه "دار الأبراج" توارثته العائلة الممتدة جيلاً بعد جيل، وأصبح مصدر البروتين الرئيسى لغذاء العائلة، حتى بعد أن توسعت وتفرقت إلى عدد من البيوت فاحتلت منطقة بحالها فى القرية سميت باسم "العتامنة" نسبة إلى مؤسس العائلة الكبير "الشيخ عثمان" فى الماضى البعيد. تذكر كيف كان يصحب أمه

- التي كانت تحظى بمكانة قيادية كأم ذات كلمة مسموعة بين فروع العائلة - فى مهمة تسلُّق الأبراج فى يوم معلوم من كل أسبوع، لجمع "الزغاليل" من صغار الحمام البرجى ذى اللون الرمادى الضارب إلى الزرقة.. كانت بارعة فى تسلُّق العوارض الخشبية المتقاطعة على شكل صليب لكل مستوى فى الصعود، وهى تدس ذراعها بداخل القواديس المعتمة وتجمع صغار الحمامات فى شيكارة من الخيش معلَّقة على كتفها، وعندما تقدمت بها السن ووهن العظم منها عهدت بالمهمة إلى أسامة فى بعض الأيام أو إلى أحد إخوته فى البعض الآخر، مع الاستعانة بفتيان من فروع العائلة فى كل المرات، لكنها التزمت بالمهمة التى أسندت إليها من أعيان العائلة، وهى تقسم أزواج الحمام الذى تم جمعه، إلى أنصبه توزع على كل بيت من بيوت العائلة بعدالة مطلقة اشتهرت بها الأم.. على أن يحضر عملية التقسيم مندوب عن كل بيت ليراقب قيام "الحاجة" بمهمتها بكل نزاهة، وبعد وفاتها دبت الخلافات بين الكبار ثم الصغار من فروع العائلة على إثر الشكوك المتبادلة بين بعضهم البعض، حيث راح كل طرف يوجه الاتهامات إلى الطرف الآخر بأنه يستغل الباقين ويصعد سراً لجمع الحمام، أو يخفى عن الآخرين عدداً من أزواج الحمام من وراء ظهورهم.. وأهمل الجميع تقديم الرعاية لأمهات الحمام حتى تتكاثر، بتزويد الأبراج بأنواع الحبوب فى غير مواسم الحصاد، وبملء المساقى التى يشرب منها الحمام فى غير أوقات سرحه بحثاً عن الشراب والغذاء، والأهم من ذلك بعدم الجور عند حصاد كل بطن من بطون الحمام بدون ترك نسبة من الصغار حتى تكبر وتصبح من الأمهات. وأدى كل ذلك إلى تناقص كمية المحصول من صغار الحمام يوماً بعد آخر حتى انقرض نسل الأمهات من الحمام وهجرت الأبراج إلى مناطق بعيدة.

راح أسامة وزملاؤه يتجولون فى المكان، صاعدين عبر أبواب تحت العقود المشرفة على الفناء، تشبه أبواب قلعة قديمة وليست مزرعة لتربية الحمام، تنفرع عنها سلالم ضيقة صاعدة إلى ممرات مظلمة تثير الخوف.

.. فى طريق عودتهم - وقد عوضوه بالجلوس فى أحد مقاعد الكابينة الأمامية - كان الصداع قد ازدادت وطأته على رأسه، وجعله الألم يستعيد نكرى سقوطه يوماً أثناء تسلقه أحد الأبراج، فكسرت ساقه، وكيف رأى - بين لحظات الألم والغيوبة - أشباحاً لوجوه بلا حصر تطل عليه بتعبيرات مخيفة وكأنها من عالم آخر، وأصحابها يمدون أيديهم بقسوة وحشية إلى ساقه محاولين خلعا من جسده.

(4)

ظهرت عليه - بعد عودته إلى الاستراحة - أعراض الحمى من ضربة الشمس، كارتفاع درجة حرارته بصورة ملفته، وتزايد الآلام فى كل جسمه وكأن مطرقة حديدية تدك رأسه وتحطم ضلوعه، وهو يكاد يسمع أصوات الطرقات مدوية فى رأسه حتى يغيب عن الوعى، بينما تطل عليه وجوه زملائه وهم يحيطون به، لكنه كان يتخيل أن بيد كل منهم مطرقة، ويتبادلون الطرُق على رأسه، كانت وجوههم غائمة لعدم وجود علاقة قديمة بينه وبينهم قبل مجيئهم إلى الأقصر، لكنه كان يميز بوضوح وجه صديقه العجوز طارق بوجهه الأحمر المستدير، تحيط به لحيته الكثيفة التى غزاها الشيب. رأى اسامة نفسه بداخل مقبرة تحتتمس الثالث وهو يعبر من ممر إلى قبو، فيتكاثف الظلام وتتراحم الموميאות، وهو يتجنب أن يدوس فوقها أثناء سيره فينتفض صارخاً، ثم تفتتح أمامه قاعة واسعة مضيئة تمتلئ جدرانها، بالرسوم الفرعونية لمجموعة هائلة من البشر تسير فى اتجاه واحد متخذةً الوضع الجانبي المعروف للرسم الفرعونى، وكأنهم سكان مدينة مهاجرة بأكملها هرباً من عدو مجهول وبحثاً عن خلاص فى عالم آخر.

وبين لحظات الإفاقة والغيوبة رأى فتاة برداء أبيض تصعد مبنى الأبراج وتسير فوق إفريز ضيق كالصراط وظهرا ملاصق للحائط، تتحسس الجدران زاحفة بظورها فى ببطء شديد خائفة من السقوط، لا يعلم كيف وصلت إلى هناك وإلى أين تزحف، لكن خاطراً أوعز إليه - وهو بين الحلم واليقظة - بأنها تريد أن تعبر من المبنى الذى تسير فوق حافته الشفوية إلى المبنى المجاور له وتفصلها عنه مساحة كبيرة من الفراغ، وبدت

له الفتاة فجأة فى صورة أمه، وهى تحاول أن تصرخ طلباً للنجدة فلا يخرج صوتها، وهو كذلك عاجز عن مساعدتها، ويرى فوق الحافة العلوية للأبراج الواصلة إلى السماء مجموعة من الطيور الغريبة تراقب الموقف فى صمت، ثم تنتفض فجأة نحو السماء مذعورة على إثر رؤيتها لقط أسود هائل الحجم يقف فوق المبنى الذى تتوجه أمه نحوه وكأنه يتربص بها لينقضّ عليها فور وصولها إليه، واكتشف أسامة أن الحافة العلوية للمبنى التى فارقتها الطيور قد احتلها عدد هائل من الرؤوس الأدمية لنسوة بملابس سوداء، يراقبن الفتاة (أمه) وهى تعبر الصراط، حاول الاستجداد بهن فلم تبتدين اهتماماً وكأنهن لم تسمعن استغاثته، بل تُركّزن أنظارهن على ترقب سقوطها الوشيك !

أفاق أسامة عثمان فرأى - فى غموض - بعض الأشخاص يضعون على جبينه وفوق رأسه كمّادات مثلجة، ثم يحملونه إلى الصندوق المكشوف لسيارة النقل، وهو مُسجّى بغير حراك، وكان يرى نفسه نائماً فوق ظهره فى قاع برج الحمام الذى سقط فيه صبيّاً، وتذكر فجأة الإسم الذى كان يطلق على كل برج.. وهو "الطيارة"، ومع هزات سيارة النقل كان يملكه بالفعل الإحساس بأنه يركب طائرة تحلق به فى أعلى السماء !

شجرة الدوم

(1)

متتالية الجبال والهضاب والتلال والوديان، يتصارع فيها ضوء الشمس مع عتمة الظل، وتتحاور خلالها تجاعيد الصخور مع ألوانها المتباينة، وتنساب عند سفوحها كثبان الرمال فى تموجات كأثواب حريرية تنفخها الريح... تتراءى لوحات الطبيعة العذراء أمام عينيه على مدى البصر بغير نهاية، وهو على مقعده بالباص السياحى المتوجه من القاهرة إلى شرم الشيخ، ضمن مجموعة الفنانين التشكيليين فى رحلة نظمتها نقابتهم، كأول فوج مسافر منها إلى جنوب سيناء بعد رفع العلم المصرى فوق طابا، لأول مرة منذ أربعة عشر عاماً من الاحتلال الإسرائيلى.

مع المشاهد المتلاحقة على الطريق كانت تتوارد بخاطر الفنان "سامح" صور أخرى ذات صلة بهذه الصحراء.. لمظاهرات الطلبة والمتقنين فى سنوات ما بعد الهزيمة والاحتلال، مطالبةً باسترداد الأرض والشرف، وكان نصيبه منها السجن غير مرة، وملاحقة المباحث له مع وضع العقبات فى طريقه أينما توجه، شأنه فى ذلك شأن المئات من زملائه وأبناء جيله، واستمر هذا بعد نصر أكتوبر 73، حيث لم تصل ثمار النصر إلى من دفعوا ثمنه، بل ذهبت إلى من قفزوا عليه تحت لافتة الانفتاح، وزاد على ذلك تكميم الأفواه للمعارضين، مع إطلاق الحرية للمتطرفين الدينيين، وتوقيع معاهدة سلام مع عدو الأمس، فلم يكن هناك مفر من استمرار المعارضة للنظام، ومعها استمر البطش بأصحابها، وطال سامح منه الفصل من العمل واستئجار من قام بتدمير مرسومه ولوحاته.

تنهد وهو يتأمل مشاهد الطريق فيما تهلّ عليه صور الماضى.. وتساءل: أمين أجل هذه الصحراء الجرداء الممتدة بلا زرع ولا ماء كانت كل تلك التضحيات، ومن قبلها مائة ألف شهيد قضوا خلال ثلاثة حروب دارت فوقها؟!.. وذهبت به الأفكار إلى أن ذلك لم يكن كافياً، فلا يزال أبناؤهم وذووهم يعانون الفقر والتهميش وسوء الأحوال،

باستثناء المحظوظين بالمال والنفوذ، والقادرين على تسلق الحواجز أو على الخطف والاحتيايل.

رأى فجأة بعض الصخور العملاقة تتشكل فى هياث آدمية بأوضاع مختلفة خلال بعض المناطق، وأشعة الشمس القوية تجسدها بالظلال الكثيفة، انبهر بها بكل كيانه هاتفاً من أعماقه: سبحان الله!.. كان بعضها مثل قافلة من العمالقة صاعدين إلى قمة الجبل، وكان بعضها الآخر يبدو كمعركة من جبابرة يحاول كل منهم أن يصرع خصمه، وكان ثالث يشبه حالة التحام عاطفى بين صخرتين، وبدا رابع كتكوين حجرى لاجتماع يضم مجموعة من البشر، كانوا يوماً يتجادلون فى صخب ثم تحجروا فجأة على نفس أوضاعهم، وثمة كتلة أخرى عند رأس الجبل مثل ديناصور خرافى وهو يزأر مناوشاً كتلة تتلوى بالقرب منه كالتنين، وعلى السفوح والوديان المنبسطة تتناثر تكوينات حجرية توحى بأنها قوافل من الأغنام والماشية، وثمة وديان منخفضة أسفل الطريق تتساب كثبانها الرملية متماوجة فى ليونه، يتوسطها تكوين من عدة تكوُّرات وتجسُّدات طبيعية على شكل امرأة مستلقية على ظهرها، مستسلمة ومستباحة، وبالقرب منها تكوينات أخرى فى حالة انتفاض أو مقاومة... عالم أسطورى يموج بالألهة والعييد، وبالمردة والأقزام، بين الشموخ والمسوخ، لم يرجع منه سامح إلى الواقع إلا عندما رأى مشهداً حياً لقافلة من الجمال تسرح فى الصحراء بغير أصحاب، وتسير بتوِّدة ونظام نحو هدف معلوم لديها.. لعله الطريق إلى نبع الماء.

(2)

تسابق الفنانون للنزول عند نقطة فى الطريق، تزدحم بالتكوينات الصخرية، وبألوان الأكاسيد المتعاقبة فى شرائح أفقية من جسد الجبل، بين الأحمر الطوبى والأخضر الزيتونى والأوكر السنجابى والأبيض الرمادى والأزرق البترولى... وشرعوا يلتقطون الصور الفوتوغرافية بحماس.. صاح فيهم الدكتور عبد الفتاح عضو مجلس

إدارة النقابة المسئول عن الفوج - محذراً إياهم من التصوير لأن هذه منطقة عسكرية، لم يبالوا بتحذيراته واستمروا فى التصوير، فتعالى صياحه بنبرة غاضبة، طالباً منهم العودة إلى السيارة على الفور بلهجة أمر حادة وإن حاول تخفيفها بكلمات "أرجوكم!.. حضراتكم!.. من فضلكم!.." كان معروفاً عنه حبه للسيطرة وإصدار الأوامر فى جميع الرحلات التى يخوله منصبه فى المجلس الإشراف عليها، وكثيراً ما تنتهى الرحلة بصدامات وشجارات بينه وبين بعض الزملاء، مما جعل كثيرين يحجمون عن الاشتراك فى رحلات النقابة بسبب سلوكه المتزمتم وكأنه يقود رحلة مدرسية..

أصدر د. عبد الفتاح تحذيره الأخير بأنه سيأمر السائق بالتحرك تاركاً كل من يرفض الصعود، هاج الزملاء وماجوا، وتصاعدت الاتهامات له بالاستبداد والديكتاتورية وسوء استخدام السلطة المخولة له، واختراعه لنظرية أن هذه منطقة عسكرية لإرهابهم، فى الوقت الذى لا يوجد أى منطق أو دليل على منع التصوير فيها.. وتمادى أحدهم فقال له: إذا كنت حريصاً على الالتزام بالنظام إلى هذا الحد، فلماذا أحضرت ابنك معناً مجاناً ولم تدفع له اشتراكاً مثل الجميع؟!.. فرد بعنف رافضاً هذا التلميح إليه بالاستغلال والفساد، معلناً أن سعر الأتوبيس لم يزد مليماً واحداً بإضافة ابنه، وانزوى الولد ذو الخمسة عشر عاماً بعيداً عندما توجهت الأنظار إليه، ثم أسرع بالصعود إلى السيارة وجلس خائفاً متوارياً فى آخر مقعد بها، وكاد الأمر يتطور إلى مشاجرة، لولا تطوُّع كبار السن من الأعضاء بمطالبة الجميع بركوب السيارة، وكفاهم ما التقطوه من صور فى هذا المكان، على أن يتم بحث الأمر قانونياً مع الجهات المختصة بعد وصولهم..

صعدوا أخيراً الواحد تلو الآخر فى تباطؤ، مهددين برفع شكوى إلى النقابة بعد عودتهم.

(3)

طابا.. وإن طال السفر!.. اتفقت أغلبية الآراء على أن تكون هى مقصدهم فى الصباح بعد قضاء ليلتهم الأولى فى شرم الشيخ، ليقفوا عند "حد الموسيقى" الفاصل بين

أن نكون أو.. لا نكون، عند ذلك الكيلومتر المربع - والأخير - فى سيناء، لإثبات حق مصر فى كل حبة رمل منها، أمام محاكمات العدو الذى يدعى ملكيته لها.

الأسلاك الشائكة تحيط بالمنطقة الصغيرة المتنازع عليها أمام محكمة العدل الدولية.. رأى سامح والباقون، حارسات إسرائيليات من وراء الأسلاك الشائكة، تتمدّدن "بالشورت الساخن" تحت الشمس، تقرأ الصحف والمجلات وتتناولن المرطبات، فى تحدٍ متعمد وإثارة مكشوفة للجنود المصريين، الذين يقومون بالحراسة على الجانب المصرى المقابل من الأسلاك، وهم لا يستطيعون إبعاد عيونهم الجائعة عنهن، فيما يعانون من الحرمان والعطش بعد الوقوف ساعات طوال تحت هجير شمس أبريل.

ذهب سامح إلى الدكتور عبد الفتاح يطلب منه بعض زجاجات الماء المعدنى، وبعض معلبات العصائر التى حملوها معهم بالسيارة، لتوزيعها على الجنود المساكين، تخفيفاً عما يعانونه، وإشعاراً لهم باهتمامنا بهم، لم يكتف الرجل بالرفض، بل راح يتهمه بتبديد حق الزملاء والخروج على النظام واختلاق المشاكل التى قد تعرّضهم جميعاً لمواقف غير مأمونة العواقب مع الأمن القومى والقيادة العسكرية فى المنطقة، تصاعد الجدل وازدادت حدّته كما حدث بالأمس عند وقوع مشكلة التصوير الفوتوغرافى، صرخ سامح رافضاً وصاية رئيس الفوج واستبداده برأيه، وأسرع يدعو بقية الفنانين لمناقشة الموضوع وإجراء التصويت على قرار بتوزيع المشروبات على الجنود، وهو على ثقة من أنهم سيؤيدون رأيه، مشيراً إلى الجنود قائلاً فى حماس:

- هؤلاء أختنا الذين يقفون لحمايتنا، وإخوتهم استشهدوا هنا من أجلنا..

لكنه فوجئ بأن أغلب الزملاء لم يهتم أصلاً بالحضور لمناقشة الموضوع، وكانت المفاجأة الأكبر هى عدم موافقة أغلب من حضر منهم على اقتراحه، بالرغم من أنهم كانوا بالأمس من المهاجمين بعنف للدكتور عبد الفتاح والمحتجّين على استغلاله لموقعه بدعوة ابنه على حساب النقابة والزملاء، ولم يؤيد اقتراحه غير زميلين اثنين، فانسحب بعيداً عن الجميع غاضباً، التحق به أحد الزميلين اللذين أيدا موقفه، وقال مهونا عليه:

- لا تغضب يا أخی.. فهذا بالضبط هو حالنا الآن فى كل مكان: مؤيدون فى السرّ يعارضون فى العلن، ومعارضون فى العلن يؤيدون فى السر، وأغلبية لا تبالى باتخاذ أى موقف، ثم تكون هى أول من يشكو أو يقتنص الفرص!.. أليس كذلك؟

(4)

مضى سامح يتأمل بعض البدويات أثناء رعى الماعز والأغنام، أو أخريات يقمن بجلب الماء من بئر قريب، وهنّ يصوّبن إليه من تحت براقعهن نظرات حذرة وفضولية لا تكشف عن حقيقة مشاعرهن تجاه مثله من الغرباء، بعد أن حُرمن مما كان يغدقه العدو عليهن - خلال سنوات الاحتلال - من مساعدات مادية لكسبهن إلى جانبه، بعيداً عن بلدهن الذى لم يقدم إليهن شيئاً، بل تركهن يعانين الحرمان بعد تحريرهن من الاحتلال، فلا كسبن استمرار طيب العيش فى وجود العدو، ولا نَعْمَنَ بحضن الوطن بعد عودته إليهن !

اندمج فى رسم بعض البدويات بدون أن ينتبهن إلى أنه يرسمهن، ثم تحول إلى رسم بعض الصخور المتأسنة، لاحظ أن الفتاة البدوية التى رسمها قد دخلت بَعْنَمَاتِها فى منطقة النزاع المسوّرة بالأسلاك الشائكة، وبدت وكأنها اعتادت ذلك كشيء طبيعى تماماً تقوم به كل يوم منذ طفولتها المبكرة، وأنها لا تسأل نفسها إذا كان ذلك ممنوعاً أو مسموحاً به، ولا تعرف أصلاً أن ثمة مشكلة بشأنه تُعرض الآن على محكمة دولية، إنها ببساطة تبدو كجزء عضوى من هذه الطبيعة، وأن الطبيعة جزء منها.. هكذا بدت بتصرفها التلقائى وهى تتجه إلى شجرة الدوم وتستظل بظلها مع غنماتها.

راح يتأمل فى دهشة شجرة الدوم العملاقة وكأنه يراها لأول مرة، بالرغم من قيامه برسم اسكتش لها منذ قليل، لاحظ أن مجموعة أشجار منها يتراكم بعضها فوق البعض الآخر بشكل رأسى، مكوناً خمائل شجرية تتصاعد فى طبقات كموجات إنشطارية عبر سيقان الأشجار كأجيال ممتدة، إكتمل المشهد بوجود الفتاة البدوية حتى توحدت معه، تذكر سامح ساخراً ما سمعه عن زعم الإسرائيليين بأن شجرة الدوم فى طابا تعود إلى

عهد النبي موسى، كدليل على أن هذه الأرض ملك لبني إسرائيل ! وسأل نفسه: هل تعرف هذه الفتاة تلك القصة؟.. وهل تعنى لها أى شئ غير أنها على أرض آبائها وأجدادها ؟

بدأ يرسم الفتاة بزّيها السيناوى جالسة بين نعجاتها تحت شجرة الدوم.. وبعد أن انتهى منها أحس بأن شيئاً ما ينقصها، شيئاً غامضاً لا يمكن التعبير عنه بالأسلوب الواقعى الذى رسم به الاسكتش الأول، قلب الصفحة فى دفتر الاسكتشات الكبير، وأمسك بقطعة عريضة من الفحم الصلب (الكونتية) وأخذ يرسم ببطن القطعة بانفعال وبلمسات عريضة وسريعة نفس التكوين بأسلوب تعبيرى مختلف، فجعل فى وسط الخمائل المتصاعدة لشجرة الدوم وجوهاً وعيوناً بشرية تبرز وتتكاثر بغير نهاية، ومن حولها - فوق الأرض - دائرة كبيرة مُسوّرة بالأسلاك الشائكة، ونبتت فيها كذلك وجوه وعيون مثل التى ظهرت فى موجات الخمائل المتصاعدة داخل شجرة الدوم، وفى منتصف الدائرة رسم صخرة على شكل امرأة جالسة بغير تفاصيل واقعية تبدو جزءاً عضوياً من الأرض.. راسخاً وأزلياً.. كأنه نابت منها ويستحيل انفصاله عنها، تحيط به - فى نصف دائرة - مجموعة أحجار صغيرة تشبه غنّات مسالمة.. وسأل سامح نفسه وهو يؤكد ظل الكتلة الصخرية على الأرض بلمسة عفوية من قطعة الفحم الصلبة: أى أهمية الآن لما قد تحكم به محكمة العدل الدولية ؟

وفيما كان يلقي النظرة الأخيرة على اللوحة، كان يتناهى إلى سمعه صياح الدكتور عبد الفتاح وهو يشترك مع البعض فى جدل لا طائل من ورائه.. وعندما شعر بالارتياح إليها استرخى مستنداً بظهره على صخرة، ناظراً إلى الأسلاك الشائكة جهة العدو الإسرائيلى، وكانت الحارسات تمذُنن أيديهن بعلب العصائر المتلجة نحو الجنود المصريين ضاحكات، وهؤلاء ينظرون نحوه وهم يدارون تعبيرات وجوههم بأقنعة زائفة من اللامبالاة، وأيديهم تقبض بقوة على البنادق، أما هو.. فكان يشعر ببراح عريض فى

صدره، جعله يتنفس بأقصى ما احتملته رئتاه من هواء، وتلاشت من نفسه كل الذكريات
الأليمة، وأصبح مستعداً للتسامح مع الوجود كله.

عشيق النخلة !

رحت ألّهت لألّحق بخطوات عم سالم أبو عجين، سيراً على الطريق الترابى، أو قفزاً فوق جسور القنوات الضيقة بين الحقول، وأنا أحمل قفة كبيرة خالية من خوص النخيل، فيما يحمل هو ثلاثاً مثلها متداخلة فى بعضها البعض، وينطلق مسرعاً فى حيوية شاب فى العشرين، فيسبقنى دون أن يبدو عليه التعب، بالرغم من أن سنه يقارب التسعين حسب ما ذكره لى أبى، وأنا لم أتجاوز الثانية عشرة، وعندما ناديته راجياً أن يهدئ سرعته قليلاً قال إننى ولد "خرع" مثل كل أبناء الأجيال الجديدة، لأننا لا نأكل لحم الضأن السمين ولا نشرب "السمنة البلدى" !

كنا ذاهبين فى مهمة كلّف بها والدى عم سالم، ليبدأ فى جنى أشجار الجوافة من قطعة الأرض الصغيرة التى يملكها بناحية "الواطية" كما تُسمى، ولا تزيد مساحتها عن قيراطين بالقرب من الساقية القديمة، وعم سالم مشهور بخبرته الطويلة فى جنى مختلف المحاصيل، من الفواكه والخضروات، بعد انتهائه من مهمته الأصلية كـ "طلّاع للنخل" فى المنطقة بأسرها، حيث يتسلق النخيل مستعيناً "بالمطلع" المصنوع من الليف ليصعد به فى قفزات سريعة ماهرة حتى قمة النخلة وهو يحتضنها فى صدره بكل قوته، و "النزال" ليُنزل به وهو معلق عند سُباط النخلة كميات البلح فى "مشنة" من أعواد الحناء مربوطة بحبال ليفية، وأصحاب النخلة يتلقونها على الأرض ويفرغونها ليقوم بسحبها ثانية وتحميلها بكمية مماثلة من البلح الرُطب الأسود أو من النوار الأحمر "الزغلول" أو الأصفر "الأمهات"، وبعد انتهاء موسم جنى البلح يبدأ مهمة أخرى "لتقليم" جريد النخل وتلقيح النخلات من الذكور لإخصابها استعداداً للعام القادم، ومع انقضاء الموسم فى نهاية الخريف يبدأ فى تلبية طلبات أصحاب جناين الجوافه والبرتقال والليمون، أو حتى أصحاب مزارع القثاء والبادنجان - على قلة عددها فى المنطقة - لجنى محاصيلها، مستعيناً بعدد من أبنائه.

استجاب والدى لرجائى أن أصحاب عم سالم لمساعدته فى مهمته، خاصة وأن أولاده كانوا يعملون فى مزارع أخرى، والحقيقة أنه كان لى غرض آخر يدفعنى لمرافقته، وهو أن يتيح لى وجودنا وحدنا فرصة لأساله فى موضوع يشغلنى ويشغل كل أقرانى ولا نجرؤ على سؤاله عنه أو حتى الحديث مع أهلنا بشأنه؛ وهو أنه كان "يرافق" نخلة زرعها وهو طفل ثم تزوجها سراً عندما كبرا، لأنها ليست نخلة عادية مثل كل النخلات التى خلقها الله، بل هى إحدى بنات الجن الساحرات تمثلت فى نخلة، "خاوته" حتى عشقها، وكان لا يسمح لإنسان غيره - حتى من أبنائه - أن يطأها ويتسلقها، وقيل إن بلحها لم يكن لحلاوته مثل فى كل البلاد وأن محصولها كان أكبر محصول بين جميع النخلات فى المنطقة، وسميت طوال عمرها بنخلة عم سالم، ومع ذلك فلم يكن هو وأسرته يأكلون منه إلا قليلاً، لأنه كان يقوم بتوزيع أغلبه على الفقراء وأبناء السبيل، زكاة عن النخلة وعن صحته التى كان يضرب المثل بقوتها الخارقة. لم تكن هذه القوة تتضح فى مظهره الخارجى، إذ كان ضئيل الحجم ضيق الكتفين، أقرب إلى قصر القامة، تبدو ذراعاه وساقاه نحيلة خالية من الشحوم والعضلات، لكنها مشدودة ومرنة معاً بقوة أعواد الخيزران غير القابلة للكسر مهما التوت أو حملت من أثقال.

عندما اقتربنا من جنينة الجوافة سألت عم سالم بلهجة تبدو عابرة وبلا اهتمام:

- هى النخلة بتاعتك فىن يا عم سالم ؟

- ماتت !.. قالها باقتضاب وواصل سيره حثيثاً.

- وفين تُربتها؟.. قلتها مجازفاً مخافة أن يغضبه فضولى، قال بنفس الاقتضاب:

- هناك.. عند الترعة البحرية..

- طيب ممكن أشوفها؟

- تشوف أيه ؟

- التربة.. مش بتقول إنها ماتت ؟

لم يرد الرجل، ثم عاد يستحى للوصول إلى مكان العمل حيث أماننا الكثير لنعمله، وفي محاولة لإلهائي عن حديث النخلة قال لى:

- أحكى لك حكاية ؟..

انفجرت أساريه، فأغراني بأن أتأمله عن قرب.. وجهه الأسمر ذو تقاطيع دقيقة أقرب إلى ملامح لوجه طفل يمتلئ بالتجاويد، تحيط به لحية بيضاء مهذبة، وعمامته من الشاش الأبيض مشرّبة بقليل من الزهرة الزرقاء، ورغم وفاة زوجته منذ سنوات بعيدة، فإنه لا يتخلى أبداً عن نظافة ملابسه صيفاً وشتاءً؛ القميص الطويل من "الدّمور" يبدو دائماً أقرب إلى البياض، ذو طوق واسع يكشف عن صدره الأسمر وعظمتي الترقوة النانتين، ومن فوقه الصديري المخطط بخطوط حريرية زاهية، ومن تحته يطل سروال طويل بنفس نظافته، وأخيراً تبدو "بلّغته" الجلدية فى قدميه حائلة اللون، وهو لا يخلعها إلا عند تسلق النخل أو الشروع فى أى عمل، فتكشف عن قدمين هائلي الحجم تملأ الشقوق جلدهما الخشن.

تحدث بوجه ضاحك قائلاً أنه حين كان صغيراً فى مثل سنى كان فى الحقل يساعد أخاه الأكبر فى حرث الأرض وبذر حبوب الذرة مكان خطوط المحراث فى الأرض، ونفدت كمية الحبوب معه فأرسله أخوه إلى البيت لإحضار كمية من تقاوى الذرة، فأرشدته أمه إلى مكانها فى "المسحور"، وهو الحجرة المعلقة فى البيت، وحين صعد ليعبئ القفة الفارغة التى معه بالحبوب، وجد ماجوراً مملوءاً بالسمن الذى قامت أمه بتسييحه وتركه ليبرد فى المسحور، فانبطح وراح يعب من السمن الدافئ حتى امتلأ بطنه، ثم قام ومسح فمه وحمل البذور إلى أخيه فى الحقل وكان شيئاً لم يكن..

سألته وأنا أغالب امتعاضاً وإشفاقاً على الرجل:

- وحصل لك ايه بعد كده ؟

- ولا حاجة !.. ثم أردف قائلاً بأنه شعر بإسهال شديد أثناء قيامه ببذر التقاوى فى خطوط الأرض العميقة التى يشقها المحراث أثناء قيادة أخيه له، ولم يجرؤ على

إخباره بحالته، وإلا عرف بالفعل التي فعلها فى المسحور.. فترك مخلفات الإسهال تتساب بين قدميه بدون حاجز من سروال داخلى، فتنزل فى خطوط المحرث مع التقاوى وكأنه يقوم بعملية تسميد فى نفس الوقت!!

سألته منزعجاً عما حدث بعد ذلك، فأخبرنى بأنه حين شعر بالإعياء الشديد وبعدم القدرة على مواصلة العمل، أعترف لأخيه بما فعله، فأخذه إلى ظل شجرة التوت على رأس الغيط، وأتى له بحبة ليمون من شجرة قريبة وجعله يمتصها كاملة وتركه لينام، وعند المغرب عادا إلى البيت بدون أن يتناول غداءه، ولم يحدث شئ غير أن أمه منعتهم من تناول العشاء برغم إحساسه بالجوع الشديد، ثم قام فى الصباح سليماً معافى، واختتم حديثه لى بالحكمة من وراء الحكاية وهى أن جيله عاش على الخير والدسم فنعم بالقوة حتى الآن، بعكس جيلى وشباب هذه الأيام الذى لم يذق السمنة السايحة !

عندما وصلنا إلى جنينة الجوافة وبدأنا الاستعداد للعمل، راح يلح على خاطرى سؤال لم أستطع تأجيله، فسألت عم سالم:

- بيقولوا إنك وقعت من فوق النخلة بتاعتك وانكسر ذراعك.. ده صحيح؟

- صحيح.. لكن قمت تانى ورجعت أطلع النخل والحمد لله.

- لكن بيقولوا كمان إنها غضبت عليك ووقعتك.

- كدابين.. دى ما طرحتش تانى من يومها..

- يعنى كانت زعلانه عليك ؟

- الله أعلم !

- طيب ومانت إزاي.. وإمتى؟

صمت عم سالم وتركنى وهو يتشاغل بهز أغصان شجرة جوافه، ثم توقف فجأة وهو يقول: عاوز تشوفها؟.. قلت بلهفة:

- آ.. والنبي !

أخذنى من يدى وسرنا مسافة كيلو متر تقريباً، حتى وقف أمام جذع نخلة يبرز عن الأرض قرابة المتر، محاطاً بكوم من الردم عند ناصية حقل صغير محروث حديثاً. كان عم سالم بادى الحزن لدرجة منعته من الكلام، وإن أخذ يتمتم بشفتيه بدون صوت، سألته: إزاء وقعت ؟

- كدهه.. لوحدها.. ماحدث لمسها.. عمرها انتهى بعد سنة واحدة من الحادثة.

- كنت بتحبها قوى يا عم سالم ؟

- طبعاً يا بنى.. دى عشرة عمر !

- سمعت أنك اشتريت حطة الأرض دى اللى فيها الجدر من صاحبها.. صحيح؟

- أمال كنت اسيبه يقلعه ويحرت الأرض مكانه وما يبقاش لها ذكرى؟!

ترددت قليلاً ثم قلت متلعثماً:

- يعنى.. اللى الناس بيقلوه.. يعنى أنك كنت مخاويها.. صحيح؟

أمسك بيدي بقوة أمتنى، وجذبني بشدة للعودة إلى أرض الجوافه قائلاً:

- بلاش يا بنى كلام فارغ.. أنت لسة صغير على الكلام ده.

وشعرت وأنا أمضى معه فى صمت أنه لم يجبنى إجابة شافية.

بعد عام واحد من هذا اللقاء بينى وبين عم سالم توفى فجأة وهو نائم، وذهبت البلد كلها تودعه إلى قبره، وترددت خلال العزاء أقاويل بأنه أوصى أولاده بدفنه بجوار جذع النخلة، لكنهم لم يعملوا بوصيته ودفنوه فى مقابر العائلة حتى لا يسخر منهم أهل القرية، أو يتهموهم بأنهم يسعون إلى أن يجعلوا من أبيهم ولياً، ويقيّمون له مقاماً فيصير بدعة !

وسرعان ما باع الأبناء المساحة الصغيرة التي يوجد بها جذع النخلة إلى صاحب الأرض، فسارع باقتلاعه وحرث مكانه مع بقية أرضه.